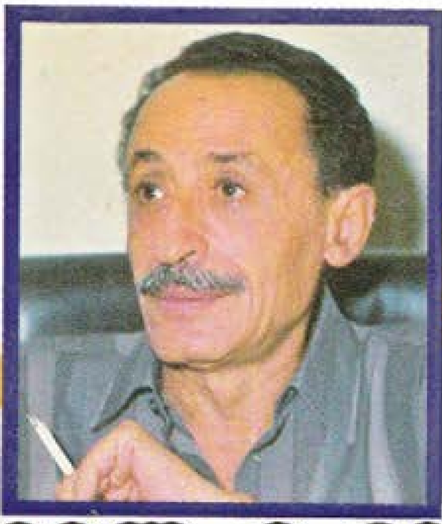
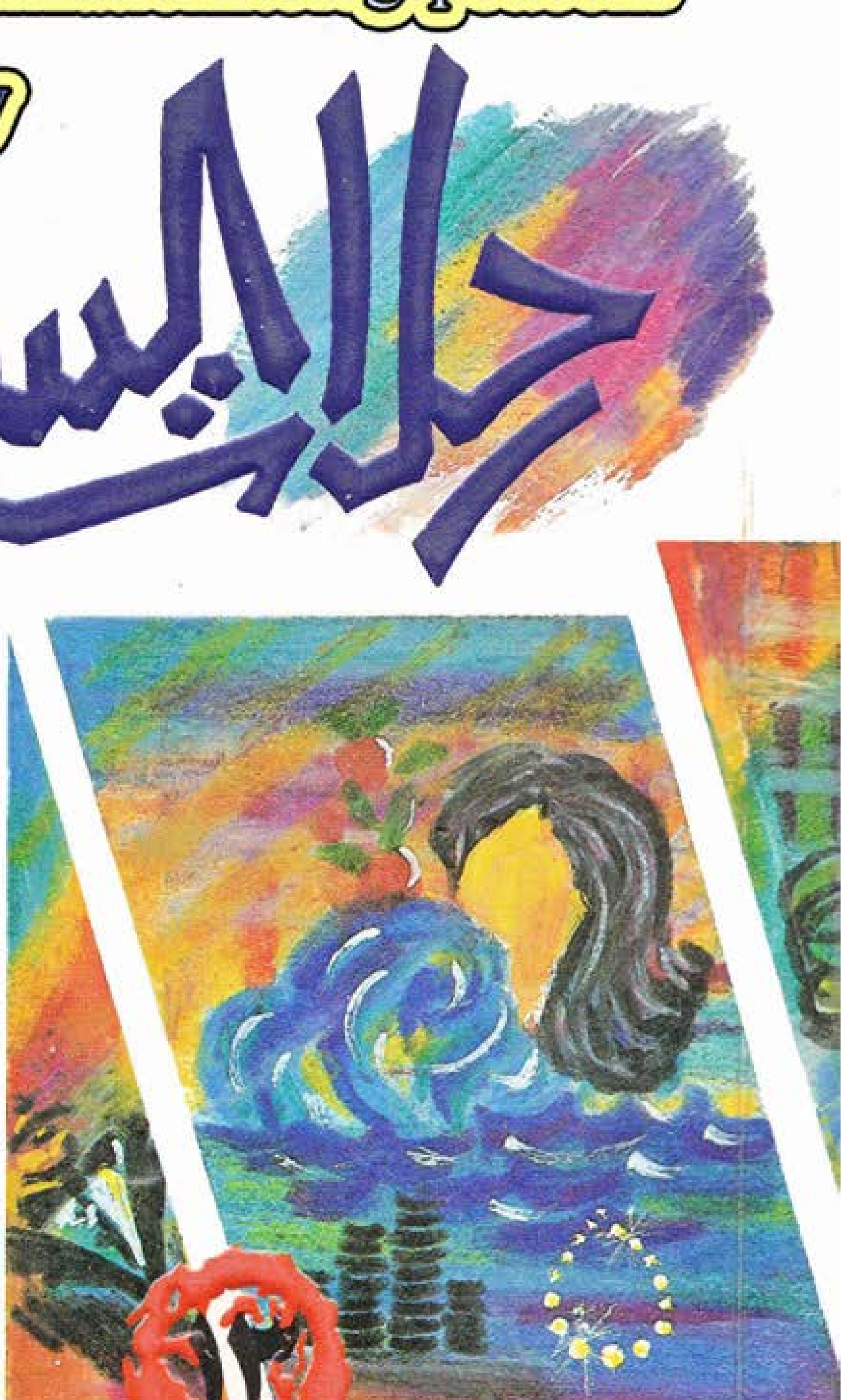
الأعمال الكاملة

صالح مرسي



رحلات السندباد البري



١٣

مكتبة مدبولي الصغير

رحلات السندباد البحري

الأعمال الكاملة

(١٣)

رحلات السندباد البري

صالح مرسي

مكتبة مدبولي الصغير

القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ ~ ١٩٩٣م

مكتبة مدبولى الصغير ـ ٤٥- البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين - القاهرة

العودة من قارة الأسرار !

عاد السندباد من رحلته الأخيرة مكدوداً مهدود الحيل . . . كان قد طوف كثيراً وغاب طويلاً . . . شرّق وغرّب . أبحر شمالاً وجنوباً . . . وجابت سفينته بحاراً لم تخض في مياهها سوى تلك السفن العملاقة من عابرات المحيطات وبحور الظلام وغياهب المجهول . . . تربص به المتربصون من القراصنة ووحوش البحر الذين ورد ذكرهم في أساطير القدماء وحواديت الجدّات ومواويل العازفين على الربابة مستجلبين أمجاداً كانت أو لم تكن . . . رأى عوالم ليست كالعالم ، والتقى بقراصنة لا خناجر في خواصرهم ولا سيوف يشرعونها في وجوه ضحاياهم ، لا ندوب في وجوههم ولا عيون فقأتها المعارك ، لا سيقان خشبية ولا أذرع من خطافات تقتل ولا تلكم . . . كانوا قراصنة من نوع فريد ، قراصنة يرتدون أفخر الثياب ، من الحرير والدمقس كانت قمصانهم ، ومن المخمل كانت سراويلهم ، أحذيتهم مصنوعة من جلود البشر ، في أعناقهم عقود من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ، وفي أصابعهم خواتم من معادن نادرة ، تزينها لآلىء استخرجت من بحار بلا أعماق ، وماسات تخطف البصر والبصيرة معاً !!

كلماتهم ساهمة ، ووجوههم نضرة ، وأيديهم ناعمة كالحرير ، وفي عيونهم نظرات تشع بالقسوة والبأس . . . قراصنة لا يصرخون ولا يهجمون ولا يحاربون كما يحارب المقاتلون . . . بل يتسللون في

خفة ، ويخدرون في صمت ، ثم يذبحون في لذة . . . ينالون وطـرهم وينصرفون وقد فاضت نفـوسهم بالـرضا ، وعلى شفتي الـواحد منهم ابتسامة تخالها ، لفرط رقتها ، أنغاماً تسيل من الوجه الوسيم !!

غيـر أن السندبـاد أفلت منهم ، لم يكن يملك من السلاح مـا يملكون ، ولم يكن تحت إمرته من الرجال معشار معشار من يأتمرون بأوامرهم ، ويصدعون لرغباتهم ولا يردون لهم كلمة !

بالحيلة أفلت ، وبالدهاء جعلهم يفسحون له الطريق ، وعندما عرفوا أن هدفه قـارة الأسرار . . . ابتسمـوا ساخـرين ، وقهقهوا غيـر مصدقين ، قالوا له :

« لم يخض أحد بحار هذه القارة وعاد منها حياً أو ميتاً ! » .

قالوا :

« من يخوض في بحور الظلمات المحيطة بها ، لا بد وأن يذهب فريسة لوحوش البحر الضارية!» .

قالوا :

« هي بحور حيتانها لا تعرف ليلاً أو نهاراً ، ولا تسمح لأحد بأن يسبح في ممالكها !» .

وقالوا :

« أسماك القرش فيها كالضباع تعشق التهام الجيفة فحافظ على أنفاسك تتردد ، وعلى لحمك حتى لا يتعفن !» .

ثم قالوا :

« عد من حيث أتيت يا سندباد ، فرجالك قليل ! » .

قال السندباد :

« لكن عزيمتي أكبر ! » .

* * *

ما أن خلف مياههم وراءه حتى استقبله زئير أمواج كـالجبال ، وهزيم رعد كزئير وحوش جائعـة ، وأمطار قـطراتها حجـارة ، ورياح راحت تزغرد كأنها في عرس شيطاني . . . ادلهمت السمـاء وزحفت السحب والغيوم ، وخرجت عليـه الحيتان وأسمـاك القرش المفتـرسة كضباع تبحث عن رائحة جيفة عفنة . . . وكان . . . كان لا بد له أن يظل حياً ، صال وجال ، ألقى بالسنانير العملاقة والشباك التي كانت تتمزق كخيوط من حرير عنكبوتي ، راح يحث الرجـال على الصمود فصمدوا ، وكلما أصـابت الأمواج كبـد السفينة بلطمـاتها المـدمرة ، أصلحـه . . . وكلما انفلق منهـا جانب رممـه ، وإذا ما تحـطم أحـد الصواري أقامـه ، وإذا ما كسـر مجداف صنـع الرجـال من أذرعهم مجاديف كانت تضرب المياه بقوة وعزم !

غير أنه استطاع في النهاية أن يعبر بحور الظلمات وقد تعلم الكثير منها ، وعرف الكثير عنها . . . فوعى ما تعلم ، وحفظ ما رأى ، ودوّن ما مرَّ به من خير أو شر ، حتى إذا ما بارح ذلك الخضم الثائر، وانداح الـظلام الرابض على أنفـاس الدنيـا من حولـه . . . استقبلته السمـاء صـافية ، والميـاه مثل بسـاط لازوردي حالم . . . وكـان الضوء ليس كالضياء ، ضوء صادر من كون بلا شموس ، فلا حر ولا حرور ، لا برد ولا زمهرير ، وإذا الدنيا من حوله مثل حلم ، مثل كرة من بللور أزرق فيما بين السماء ولا أرض . . . راحت السفينة تسبح في فضاء يُسَبِّح بحمد خالقه ، رياحه كنسيم ربيع بلا صيف من بعده . . . راحت تمخر عباب المياه وقد استقامت في مسيرتها ، وأُصلحت صواريها ، ورُممت جوانبها . واستعادت شراعها ، واستردت مجاديفها . . . ووجد الرجال من حوله وقتاً للراحة ، وسبباً للسعادة . . . ناموا وتمطوا وألهوا وشربوا وضحكوا ولعبوا حتى إذا كـان ذات يوم ، استيقـظوا على نداء يـأتيه وحـده ، نداء يصـدر من كل حـدب وصوب ، من الشمـال حيث لا شمـال ، ومن الجنوب حيث لا جنـوب ولا شرق ولا غـرب ، تسبح

الأصوات في الأجواء كالموسيقى تناديه دون سواه ، وتمنيه بما لم يحلم به إنسان . . . ثم خرجت عليهم جنيات البحر يضيء وجوههن جمال ليس كالجمال ، شعورهن أسلاك من ذهب ، عيونهن حبات من فيروز مضيء ، شفاههن كحبات الكرز توحي بالأكل لا بالقُبل ، كلماتهن غناء ، دعواتهن أنغام ، ووعودهن جنات النعيم !

في كل مكان كن هناك ، مع كل هبة ريح وامتلاء شراع ، على شطآن جزر وهميته، وقارات بلا وجود ، ودنيا من صنع الوهم والحرمان !

نعم كن هنالك ، ينادينه متوسلات ، يعدنه بما لم تره عين قبل عينيه ، أو سمعته أذن قبل أذنيه ، أو فاته قلب قبل قلبه !

كم عانى ، وكم قاوم . . . وكما فعلوا مع من نادينه في الأساطير من قبل آلاف السنين ، أوثقوه بصاري السفينة الكبير ، هكذا طلب منهم وقد تسلل النداء إلى دمائه ، ووهنت مقاومته . . . أوثقوه بالجنازير لا بالحبال ، جنازير من حديد كاد ، لفرط جنونه أن يمزقها . . . وكم صرخ ، وكم توسل ، وكم بكى بدمع سخي، ولكن . . . لا حياة لمن تنادي ، كان عليه أن يتعذب وحده ، أن يسمع ويرى ويحرق الشوق حلقه دون أن يلبى ، ودون أن ترطب وجدانه الملتهب ، قبله كم كان شوقه إليها !

وكما أن لكل شيء نهاية ، فلقد عبرت السفينة مضيقاً بين جبلين تطاول هامتها السماء . . . مضيق تحيط به خضرة ليست كالخضرة ، وزهور سبحان من خلق وأبدع ، تفوح من الكون هنالك روائح عطر كالبلسم . . . تهادت السفينة عابرة المضيق ، بينما كانت عرائس البحر لا زلن ينادينه ، تبتعد أصواتهن وتشحب على البعد وجوههن وتتلاعب ريح اليأس والغيظ بشعورهن الذهبية ، وتتساقط دموعهن مثل حبات من لآلئ في مياه عميقة الغور !

وقتها . . . خف وجيب قلبه ، وحل الرجال وثاقه ، فسجد لله شكراً ، فها هي قارته المنشودة وقد أجمت على مرمى حجر . . . ولكن ، وقبل أن ترسو السفينة على الشاطىء ، كان عليه أن يذكر ويتذكر ، يذكر للرجال ما قاله له شيخه قبل الرحيل ، ويتذكر ـ مع القول ـ ما في حديث الشيخ من حكمة قد تكون غائبة عنه !!

* * *

قبل الرحيل كان قد عزم .

وعندما عزم كان لا بد له أن يتوكل . . . غير أنه بعد العزم وقبل التوكل ، كان لا بدّ له أن يسعى إلى شيخة طالباً النصح والبركة !

شيخة ذاك الذي يعيش خارج المدينة بكل صخبها وضجيج الأسواق فيها وألاعيب القرادة والحواة واللاعبين فوق الحبال والباحثين عن السلطان عند السلطان . . . كان شيخة سندباداً جاب من البحار ما لم يفعل بحار من قبل ، كان سندباداً خاض محيطات الحياة وحكمتها ، والدنيا وزينتها ، والفجور ولذته العابرة . . . غير أنه بعد أن طاف وجال ، كانت الحكمة لديه في التأمل . . . هنالك ، تحت تلك الشجرة الوارفة الظلال ، يقتات من ثمارها ، ويرتوي من مياه جدولها الساري غير بعيد . . . يلتحف مع السماء بأسمال اكتفى بها من الدنيا ، يشخص بصره إلى السماء أو إلى الأفق ، أو يرقب عوداً أخضر يترعرع بازغاً للحياة من قلب الأرض ، فيرى فيه جلال الخالق والمخلوق معاً !

وقف السندباد أمامه وكان في أبهى حلله ، ألقى عليه السلام فرد التحية بأحسن منها ، لاحت على وجه الشيخ ابتسامة من عرف المراد من المريد . . . أومأ إليه فجلس إلى جواره ، قبل أن يفتح السندباد فمه بكلمة ، سأل الشيخ :

« ما هي وجهتك هذه المرة؟! » .

تردد السندباد لثوانٍ ثم غمغم :

« توكلت على الله ومن توكل على الله فهو حسبه !»

« ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة! » .

« جئتك طالباً الفصح !» .

« سوف ترى ما لم تره سوى عيون قليلة ، ولسوف تسمع ما لم تسمعه آذان البشر إلاَّ من خلال أفواه مكممة !! » .

« فأي الطرق أسلك ؟!» .

« الطريق واحد كما أن الرب واحد ! » .

« زدني علماً!».

« لا تهن أمام الخوف مهما بلغ بك الخوف ! » .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها! ».

« إذا عزمت فلا تتراجع ، وإذا توكلت فاجعل الله وكيلك دون البشر ! » .

« في سيفي إيماني بالله! ».

« فلا تقرب إذن ، جنية ذهبية الشعر وضاءة الوجه فيروزية العينين لؤلؤية الدمع ! »..

« ما أستطيعه فهو عليَّ ، وما بيد الله كيف أدفعه ؟!»..

« بالسيف المغموس في الإيمان !»

« زدني نصحاً » .

« لا تمد يدك إلى درهم إلاَّ بالحلال !» .

« وأما بنعمة ربك فحدِّث !» .

« خض في البحار بقَدَر !» .

« وأنَّى لي معرفة قدْري !» .

« بقدر قوة ذراعك واحتمال رجالك وصلابة سفينتك !»

« لسوف أرى أجناساً بعدد شعر الرأس !» .

« ولسوف ترى أهوالاً بعدد حبات الرمل !» .

« أتريد أن تلقي بالخوف إلى قلب لم يعرف للخوف طعماً من قبل ؟!» .

« حيتان الطريق لا تعرف الرحمة !» .
« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة! ».
« هي حيتان بلا قلوب !» .
« والرجال !» .
« كأنهم آلات تدور !» .
« وكيف أنجو ؟!» .
« بالحيلة !» .
« والأمواج ؟!» .
« أمواج طريقك كالجبال ، إذ ما نهشت إحداهن سفينة هصرتها! ».
« وهل تقوى سفينتي على الإبحار فيها ؟!» .
« بالعقل تستطيع أن تسبح ولو في بحور من رمال !» .
« زدني علماً ».
« العواصف أمرها بيد من سيرها !» .
« وماذا عن قارة الأسرار ؟!» .

لاذ الشيخ بالصمت ، ارتجفت جفونه ، واهتزت أهدابه ، وسبحت عيناه البيضاوان في الأفق البعيد ، تململ السندباد في جلسته وقد داهمه القلق ، فعاد يلح :

« وماذا عن قارة الأسرار يا مولانا ؟!» .
« تسألني وفي السؤال جواب !» .
« يعز عليَّ الإدراك فخذ بيدي !» .
« إيمانك في سيفك !» .
همَّ السندباد بالسؤال فأردف الشيخ باسماً :

« هذا قولك لا قولي !» .

أدرك أن الشيخ قال . . . فقال :

« دعواتك يا سيدي! ».

« لا تفيد الدعوات بقدر ما يفيد العزم !».

« لا إله إلاَّ الله !» .

« كي يكتمل الإيمان ، فلا بد من اكتمال الشهادة !» .

« محمد رسول الله !» .

« توكل يا ولدي على الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى !».

* * *

وعاد السندباد . . .

عاد من رحلته مكدوداً مهدود الحيل . . . عاد كي يجد اسمه على كل لسان ، وكي يجد على كل لسان سؤال ، وكان لا بد لكل سؤال من جواب .

عاد من رحلته وقد شاب شعره ، وسقطت أسنانه ، واسترسلت شعيرات ذقنه فوق صدره . . . عاد وقد تضعضعت صحته وخارت قواه . . غير أن عينيه كانتا تشعان ببريق كان يسحر هؤلاء الذين استشفوا ما خلف البريق من حكمة ، ويدفع بالغيظ إلى صدور هؤلاء الذين استعلوا عليه وسخروا منه . . . عاد محملاً بذكريات لا تنمحى ، وكانت الدنيا التي غادرها قد تغيرت بقدر ما تغير ، وتبدلت بقدر ما اكتسب . . . وإذا ما سأل عن شيخه قالوا له إنه رحل منذ زمن ، ترك شجرته وحمل صرته بعصاه فوق كتفه ، قالوا إنه قال:

« ما عدتم في حاجة إليَّ ، فلسوف يعود إليكم من اكتسب الحكمة بالعمل ، والدهاء بإعمال الفكر ، والقناعة بغنى النفس ، والإيمان بالغوص في ملكوت الله !»

سألوه :

« وإذا ما عاد ؟!».

قال :

« ذكروه بما كان بيننا من خيث وعهد !».

اجتاح الحزن نفس السندباد ، أوى إلى بيته فلم يرَ فيه بيته ، لجأ إلى زوجته ولم تكن هذه هي زوجته ، سعى إلى أولاده وكان العيال قد كبروا وشبعوا وسعى كل منهم في أرض الله بحثاً عن رزق . . . فتش عن الأصدقاء فكان منهم من رحل ومنهم من مات ومنهم من استقبله كالغريب . . . ولم يبق أمام السندباد سوى نفسه ، فأوى إليها !!.

حتى إذا كان صباح ، وجده الناس يفعل مثلما فعل شيخه من قبل ، احتمل صرته فوق عصاه على كتفه وراح يسعى مغادراً المدينة . . . صاح فيه الناس :

« لِمَ تغادرنا ونحن في حاجة إلى ما حصلت وعرفت ورأيت ؟!».

قال :

« هنالك تحت ظل الشجرة ، بجوار الجدول . . . تجدوني !».

« كيف ستعيش ؟».

« كما عاش شيخي أتغذى من ثمارها وأرتوي من جدولها الساري غير بعيد !».

« والبحر يا سندباد !».

« لكل زمن سندباده !».

من وسط الجمع الذي تحلق من حوله ، زاحم الناس صبي استطال جسده قبل الأوان ، الوجه وجه صبي والجسد جسد شاب ، هتف به الصبي الذي وصل إليه :

« أريد أن أكون سندباداً مثلك !».

ابتسم السندباد وقد فاضت نفسه بالحب ، ربت على رأس الصبي متسائلاً :

« هل ركبت البحر يوماً ؟!».

سعى الصبي وراءه وكان هو يغذي السير مغادراً، هتف مهرولاً إلى جواره :

« إني أجلس على الشاطىء ، أرقب المياه والأمواج والسفن !» .
« ولماذا ؟!» .
« أحلم بيوم أستخلص فيه الحقيقة !» .
« هل اعتليت قمة موجة غاضبة ؟!» .
« سوف أفعل إذا ما اشتد عودي !» .
« هل صارعت الحيتان ووحوش البحر وقروشه المفترسة ؟!» .
« خذ بيدي أفعل ما فعلت !» .
« لو أنني فعلت لما فعلت أنت شيئاً!» .
« زدني فهماً قواك الله !» .
« سل وأنا أجيب !» .
« قص علي من رحلاتك نتفاً أتغذى بها فيما هو مقبل من أيام !» .

كانا قد وصلا إلى الشجرة فحطا هناك الرحال .

جلس السندباد وقد أضناه السير وطول الطريق . أسند ظهره إلى جذع الشجرة ، تذكر شيخه فدمعت عيناه امتناناً وشوقاً ، هتف الصبي غير مصدق :

« هل تدمع عينا السندباد ؟ !» .

كان الصبي يجلس أمامه كمن يجلس في محراب ، لاحت على وجهه ابتسامة متعبة وقال :

« لا تدمع عين من خشية الله إلاَّ وحرمت عليها النار !» .
« هل أخطأت يا سندباد؟ !» .
« من لا يخطىء لا يعرف طريق الصواب !» .
« هل أذنبت؟ !» .
« من لا يذنب ، يفتقد لذة التوبة ونعيم القبول !» .

ران الصمت عليهما وقد شحب وجه الصبي وتاهت نظراته . . .

التفت السندباد نحوه ، فإذا الزمن وكأنه آن لا ماضي له ولا مستقبل ،

كأنه هو هو الجالس ذات يوم أمام شيخه قبل أن يشب عن الطوق ، كان يطلب النصيحة والنصح ، تنهد ملىء صدره ، سأل الصبي :

« ماذا بك يا ولدي؟ ! » .

« انتظرتك طويلاً يا سندباد ! » .

« فماذا تريد أن تعرف؟ ! » .

« أريد أن أعرف شيئاً عن الناس ! » .

« فيهم من يرتفعون إلى مستوى القديسين . . . وفيهم من تتوارى الشياطين منهم خجلا! ! » .

« ماذا عن الثروة؟ ! » .

« كوكبنا في كون الله ذرة ! » .

« فلماذا يلهثون؟! » .

« جرياً وراء وهم ! » .

« ولِمَ يتقاتلون؟ ! » .

« بحثاً عن سراب ! » .

« فكيف السبيل إلى النجاة؟ ! » .

« بطلبها . . . أطلب تجد ! » .

« طلبت قبل وصولك ولم أجد ! » .

« ليس الطلب كالطلب ! » .

« زدني فهماً ! » .

« الطلب المجاب لا بد مصحوب بالسعي إليه ! » .

« وإذا لم أستطع؟ ! » .

« إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ! » .

« كيف أصمد؟ ! » .

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ! » .

« هل تقص علي نتفاً مما رأيت ! » .

« الصعود إلى الأدوار العليا يستلزم درجاً ! » .

« خذ بيدي ! » .
« قبل الخوض فيما خضت فيه ، اعرف شيئاً عن دنياك ! » .
« وماذا عن قارة الأسرار ؟ »

أرتج السندباد ساهماً ، تماماً مثلما فعل شيخه من قبل ، زاغت عيناه وشحب وجهه ، حتى إذا طال الصمت ، سأل الصبي ملحاً :
« وماذا عن قارة الأسرار ؟! » .
« كيف تسأل عن قمة جبل وأنت بعد لا زلت عند السفح ! » .
« أعرف أن تسلق الجبال عسير ! » .
لاحت على وجه السندباد ابتسامة ، برقت عيناه وهو يقول :
« نعم . . . غير أن فيه كل ما في الحياة ! » .
« وأنت ؟! » .

اعتدل السندباد دهشاً :
« ماذا عني يا ولدي ! » .
« إذا الناس سألوني عنك يوماً ، ماذا أقول لهم ؟! »

صمت السندباد لحظات تهدجت فيها أنفاسه ، ثم جاء صوته كالنذير :
« قل لهم . . . إني سافرت يوماً !! »

* * *

ثم راح السندباد يقص على الصبي نتفاً مما رأى وسمع !

صالح مرسي

ناس بلا حيرة

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه في لهفة :

« ألا نتبلغ من ثمر الشجرة التي تظللنا حتى نسكت عواء البطون ، ونرتوي برشفة من ماء الغدير ترطب الحلق بعد طول مسعى في لفح الشمس ؟!».

هبَّ الفتى كي يقطف ثمرة من فرع بدا له قريب المنال ، وما كاد يفعل حتى سقطت في حجر السندباد ثمرة في حجم قبضة اليد ، فلا هي كبيرة ولا هي صغيرة . . . كانت ثمرة ذات لون غريب ، فلا هي حمراء ولا هي خضراء ولا هي صفراء . . . وكأن الخالق سبحانه وضع في اللون من بديع صنعه ما لم تره عين من قبل . . . فاللون فيها يلد لوناً آخر وينداح إلى ثالث كي يكون لوناً رابعاً يصنع من ذاته لوناً خامساً فإذا الألوان تتناغم وتتناسق وتتداخل فكأن كل ألوان الدنيا قد اجتمعت في لون واحد .

بهت الفتى وراح يحملق في السندباد الذي راح يمسح الثمرة في كمه ثم يتمتم بسم الله كي يقضم منها قضمة ، فإذا وجهه يشرق بسعادة تنبيء عن لذيذ طعمها وجميل مذاقها . . . مد الفتى يده نحو ثمرة مدلاة في فرع فاقتطفها ، مسح عنها التراب في كمه وجلس قباله السندباد وراح يأكل ، فإذا طعمها بلسم يرد الجوع ويشبع عواء البطن ، أخذ يأكل ويأكل حتى شبع وما جاء على الثمرة كلها ، بدت الدهشة على

وجهـه وكان السندباد قد وضع ما تبقى من ثمرته جانباً ، نظر السندباد إلى الفتى الذي همَّ بالسؤال فإذا الجواب يأتيه قبـل أن يسأل ، قـال السندباد :

« في القناعة غنى ، كما أن فيها شبعاً لا يعرفه إلاَّ الذين لا يأكلون حتى يجوعوا ، وإذا أكلوا حرصوا على ألا يشبعوا !» .

« أوَتكفي الرجل منا ثمرة واحدة يا سندباد ؟!» .

« إن كنت لا تـزال جـائعـاً ، فهـا هي الثمـار تتـدلى كعنـاقيـد العنب ! » .

« ولكني شبعت فعلاً !» .

« فأحمد الله على أنك ممن يأكلون فيشبعون !» .

« الحمد لخالق السموات والأرض » .

« لئن شكرتم لأزيدنكم! » .

كان في قول السنـدباد رداً لا يحتـاج إلى سؤال، نهض الفتى إلى الغدير فاغترف من مياهه بعضاً من مائه الزلال فارتوى ، كذلك فعـل السندباد الذي حمد الله بعدها وأثنى عليـه ثم أسند ظهـره إلى جذع الشجرة ، فازدادت لهفة الفتى واعتدل في جلسته هاتفاً :

« ألا تقص عليَّ نتفاً من رحلاتك يا سندباد ؟!» .

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس :

« هل سمعت عن جزر الأزورس ؟!»

« وما جزر الأزورس يا مولاي ؟!» .

« هي جزر تقع في قلب بحر الظلمات !» .

« وما بحر الظلمات أعزك الله ؟!» .

« هو هذا الذي يطلقون عليه اليوم اسم المحيط الأطلسي ، فيما بين أرض الروم وتلك التي اكتشفها سندباد من أتباع نبي الله عيسى بـن مريم عليه السلام . سندباد اسمه كريستوفر كولومبوس !» .

« تلك التي يطلقون عليها اليوم اسم أمريكا ؟»

« فيما بين هذه وتلك ، في قلب المحيط ، تقع هذه الجزر التي يقولون ، والله أعلم ، إنها بقايا قارة كانت تصل الشرق بالغرب البعيد . . . حيث قامت في الأزمان الغابرة قارة أطلقوا عليها اسم « أتلانتس! » .

« أوَكانت قارة حقاً؟! » .

« هكذا يجتهد الإنسان بما حباه الله من عقل وعلم . . . كان يقطنها قوم أشداء ، منحهم الله من العلم ما سبقوا به الأولين والآخرين . . . فبغوا بعلمهم وتجبروا بقوتهم فحلت عليهم اللعنة كما حلت على قوم عاد وثمود . . . فإذا الأرض تميد بهم ، وإذا الجبال كالعهن المنفوش ، وإذا السماء تنفطر ، والنجوم تنكدر ، والموج أطواد تنطح أطواداً ، قذفت الأرض من باطنها حمماً لا تزال حتى اليوم تتنفس بعضاً منها في شوارع المدن وحواري القرى في تلك الجزر العجيبة . . . اندكت بهم الأرض ، وطغت عليهم أمواج المحيط ، فلم يبقَ منها سوى قمم تسعة جبال أصبحت هي تلك الجزر القائمة حتى اليوم! » .

« وكيف وصلت إليها ؟!» .

قال السندباد :

« اعلم يا ولدي أن ركوب البحر لا كبير له ، وأن ملك الله بلا حدود ، وأن الأجناس تلد مع الأجناس أجناساً ، وأن الناس بعضهم لبعض عدو . . . ولقد كنت يومها أخضر العود قليل الخبرة صغير السن . . . وكانت سفينتنا تعبر المحيط عائدة من رحلة إلى بلاد الأمريكان ، هي رحلة تزوّد فيها التجار بالكثير من السلع والبضائع ، وتزود فيها السائحون بمزيد من علم الله وخلقه وبديع صنعه . . . كان الجميع سعداء ، كما كانت الريح رخبة هنية ، وسفح المياه يرقد تحت الأقدام مثل بساط يمتد كي يحيط كوكبنا من أقصاه إلى أقصاه بلا بداية

ولا نهاية ولا شطآن تحد من امتداده !» .

« كان الجميع سعداء بما حققوا في رحلتهم تلك . فراحوا يتعجلون ربان في العودة إلى ديارهم . . . التاجر كي يربح من تجارته ، والعابر يبغي العودة إلى أهله وعشيرته ، والبحار يتوق إلى بر الأمان . . . والكون من حولنا مثل كرة من بللور لازوردي . . . غير أن دوام الحال من المحال، وسبحان مغير الأحوال. . . أو كما قال الشاعر :

ما بين نظرة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

تغيرت الدنيا ، واربد السطح وزمجر ، وتكاثرت السحب في السماء واسود لونها ، وهبت الريح عاصفة ، وهدرت الأمواج غاضبة . . . وإذا السفينة مثل قشة تتقاذفها أمواج عملاقة ، وإذا البحارة يعملون بجد يذهب مع الكون الثائر هباء . يصلون الصباح بالمساء والليل بالنهار . . . والمركب بلا حول ولا طول ، وإذا الربان ينبىء في مكبر الصوت عن ريح صرصر تعرف باسم «الهاريكان»، حيث تهبط من السماء دوامات تلتقي بدوامات المياه ، وإذا الأمواج تتلاطم في عنف حاملة معها من الشمال جبال ثلج راحت تسبح في المياه وقد ظهر فوق السطح خُمسها ، فكأنها الموت البارد يسعى لفريسة في الطريق ، وإذا الضباب ظلام دامس يتعذر معه أن يرى الإنسان كف يده . . . وإذا السفينة مشرفة على الغرق ، وإذا الربان يطلب من الجميع ارتداء سترات النجاة تحسباً لأمر الله إذا جاء ، واستعدت الزوارق على الجانبين وتدلت . . . وولولت النسوة ، وجاء الرجال بالشكوى ، وندب صاحب المال ماله ، والراغب في الدنيا راح يبكي عمره . . . واكتظت ممرات السفينة بالرائح والغادي ، الساهم والباكي ، الذي تذكر ربه بعد طول نسيان فراح يدعوه ، والذي تذكر ولده بعد طول اغتراب فراح يجتر شوقه . . . وتخاطف الجميع سترات النجاة حيث لا نجاة ، وأيقن الكل أن مياه المحيط هي قبرهم المنتظر ، فسلم البعض أمره إلى

خالقه ، وراح البعض ينتظر نهايته واجف القلب زائغ البصر !

ولقد انقضى يوم ويومان ثم انقضى من النهار الثالث أغلبه ، ولقد كان النهار كالليل مظلماً ، تتسلل بين الحين والحين أشعة الشمس من بين ركام السحب واهنة على استحياء . . . حتى إذا كانت لحظة دوت في مكبر الصوت صيحة تعلن اقتراب السفينة من الأرض . . . واندفع الرجال والنساء وحتى الأطفال إلى حيث راحوا يراقبون شبح اليابسة على البعد . . . بدت في عمق الأفق جبال تمخضت عنها مياه المحيط . . . جبال ليست كالجبال ، أطواد خضراء ترتفع هاماتها تطاول السماء ، وما كادت الشمس تميل قليلاً نحو الغرب ، وتخترق أشعتها مثل ألف ذراع من ضوء ركام السحب المتكاثرة ، فإذا خضرة الجبال كأنها جنة نبتت في قلب الجحيم !

وإذا كانت الصيحة قد دوت قبل غروب الشمس بقليل معلنة ظهور الشاطىء . . . فلقد كان الوصول إليه ، وسط اللجة الثائرة ، بعد الغروب بساعات امتدت إلى منتصف الليل !» .

* * *

رست السفينة على رصيف الميناء بعد منتصف الليل بقليل، كالقردة كان الرجال يتقافزون فوق السطح وقد دب النشاط في أوصالهم، واجتاحت الجميع فرحة بالنجاة من العاصفة التي كانت - كلما تقدم الليل واقترب انبلاج الفجر عن ضوئه - تهن وتتهاوى وتهمد، فراح الرجال يلقون بالحبال إلى الرصيف في سعادة وهم يرددون الأغنيات، ويديرون الأوناش بالجنازير، ويتصايحون منادين أو ملبين نداءات كانت تأتيهم من حيث امتلأ رصيف الميناء بالمشاعل الكهربية حتى تحول الليل إلى نهار. . . وكان الجميع يعملون كي يقيدوا السفينة إلى البر برباط لا تقطعه موجة تسللت فوق حاجز الأمواج، ولا ريح كانت تئن في ذلك الوقت، أنين المحتضر! .

* * *

مضى من الوقت الساعة وساعتان والجميع في فرح وعمل وصيحات وضحكات ونداءات ومواعدات... كان الرصيف يشغى بالرجال والنساء والأطفال والشيوخ والفتيات والفتيان، وكأن الجزيرة قد لفظت كل سكانها الذين خرجوا مرحبين بالقادمين إليهم من قلب المحيط... كان الرجال الحاملين لبضائعهم والعارضين لخدماتهم والراغبين في ربح جاءهم على غير موعد، كانوا جميعاً يلوحون للبحارة ويساومونهم ويحادثونهم ويعقدون معهم الصفقات ويتفقون مع الركاب منهم على رحلات... وراحت النسوة هنالك يهللن ويتصايحن ويعرضن ما حملن من فاكهة وخضروات ومشغولات وألبان... أما الفتيات والفتيان، فكانوا جميعاً يغنون ويرقصون وكأن الجميع في يوم عيد!.

راح السندباد يرقب ما حوله في صمت وحيرة، بدا له الأمر وكأنه امتداد لأحلام ما مضى عليه من أيام واجه فيها مع الجميع شبح الموت... كانت فرصة الرجال فوق السفينة وسعادتهم معروفة السبب بالنسبة إليه... غير أن تلك السعادة العارمة والفرحة الطاغية من سكان الجزيرة، بدت له مجهولة السبب غريبة الوقع!.

لاح لعينيه ربان السفينة واقفاً فوق السطح العلوي في الممشى المجاور لغرفة القيادة، كانت عيناه تبرقان ببريق السعادة والانتصار على جحافل الموت التي أحاطت بسفينته، كان يدخن غليونه فيتطاير الدخان من حوله صانعاً سحابات كأنها راقصات يرتدين غلالات من أحلام... كان رجلاً هائل الحجم كثيف اللحية كبير الأنف شجاعاً رابط الجأش يضع فوق رأسه قلنسوة لا يخلعها ليلاً أو نهاراً... سعى إليه السندباد وعلى لسانه ألف سؤال وسؤال، صعد درجاً وعبر ممراً، وتسلق سلماً، حتى إذا ما وصل إلى الربان التفت إليه هذا مرحباً.

«حمداً لله على سلامتك يا سندباد!».

هكذا قال الربان فأجاب السندباد مقترباً منه:

«حمداً لله أن منحنا رباناً في مثل حكمتك وحنكتك، فلولاك لكنا الآن نرقد في قاع المحيط أو في جوف أسماكه العاتية!».

أومأ الربان نحو الرصيف الذي تحول إلى ساحة للسعادة:

«ألن تنزل إلى اليابسة؟!».

«اعلم حماك الله أني جئتك متسائلاً!».

«إذن فاسأل يا سندباد تجد الجواب لو كنت أملكه!».

قال السندباد وهو يرقب ما يحدث فيما بين الرصيف وسلح السفينة:

«إني أعرف سبب فرحة البحارة بالوصول إلى بر الأمان بعد أن صارعوا الموت أياماً، لكن لا أعرف سبباً لتلك الفرحة التي اجتاحت سكان الجزيرة فكأنهم في يوم عيد!».

قال الربان:

«اعلم يا سندباد أعزك الله، أن هذه الجزيرة واحدة من تسع جزر تتناثر في هذه البقعة من المحيط في ثلاث مجموعات تشغل ثمانمائة وثلاث وتسعون ميلاً مربعاً، ولكن الصلة، حتى بين الجزر وبعضها محفوفة بالمخاطر، فالعزلة هي قوام الحياة هنا... ولقد عرف الملاحون في عصر الاكتشافات بأمر هذه الجزر لكنهم لم يطأوها خوفاً ورهبة، وكان هذا في القرن الرابع عشر... لكن اكتشاف الجزر جاء على يد الأمير البرتغالي هنري الملاح، الذي جهز أسطولاً قاده الربان جونكالوا كابرال. وأرسله لاكتشاف الجزر واستعمارها!».

«ولم رسونا على هذه الجزيرة بالذات؟!».

هكذا سأل السندباد فابتسم الربان وقال:

«لأنها أكبر الجزر التسع، أطلق عليها مكتشفوها اسم «سان ميجيل» . . . أما هذا الميناء فهو أكبر المدن في الجزيرة جميعاً، واسمه «بونتا دلجادا»!.

«وكيف يعيش أهل الجزر أيها الربان!».

«لسوف تدهش إذا ما علمت أنهم يعيشون على الزراعة، فأرضهم بركانية خصبة، وأمطارهم وفيرة، وبحيراتهم حلوة المياه، وأرضهم كأنها جنة الله هبطت على الأرض. . . هم يزرعون الموز والبرتقال والكروم والدخان والشاي، كما يزرعون الأناناس في مزارع مغطاة يسمونها الصوبات، ويصنعون منه شراباً لذيذ الطعم حلو المذاق، يعتقونه في أقبية لكنه لا يسكر شاربه ولا يفقده الوعي، بل يفتح الشهية ويعطي لشاربه قوة. . . وبالرغم من ذلك فشعب الجزيرة فقير لا يكاد يجد قوت يومه. . . ملاك الأرض من أهل البرتغال يستأجرونهم بما يكاد يسد الرمق. . . وهم في جزيرتهم معزولون عن الدنيا، فهم أناس بلا جيرة تؤنس وحدتهم وسط لجة مياه تحيط بهم من كل اتجاه. أقرب الشواطىء الغربية إليهم تبعد ألفان وثلاثمائة ميل، وأقرب الجيران من الشرق هي شواطىء البرتغال التي تبعد عنهم نيفاً وخمسمائة ميل تقطعها السفن الكبيرة في يوم وليلة. . . جاء أجدادهم الأول من البرتغال، ثم لحق بهم بعض سكان بلاد الإنجليز، ومن بعدهم هبط أرض الجزر بعض المغاربة المعروفون هنا بأهل مراكش. . . حكمهم الإسبان بعد انهيار الأندلس، ثم جاء البرتغاليون مرة أخرى فاختلطت الدماء والأنساب والأصول وتاهت منها الجذور!».

لاذ القبطان بالصمت ريثما يشعل غليونه، بينما راح السندباد يرقب جموع الناس وقد اختلط الحابل بالنابل بعد أن مُدت السقالة فيما بين الرصيف والسفينة وأصبحت معبراً للصاعدين والهابطين. . . امتلأ الجو بالضجيج والصياح والضحكات ورنين القبلات والأغاني ودبيب

الراقصين والراقصات وعازفي الموسيقى وضاربي الدفوف وكانت الدنيا تبدو وكأن الناس في عيد... غير أن صوت الربان سرعان ما جاء إلى السندباد مغموساً في شجن غامض... قال:

«إنهم قوم يبحثون عن ونيس أو جليس أو ضيف يفيدونه ويستفيدون منه، يرحبون بالسفن اللاجئة إليهم من أخطار المحيط، ويهللون لسفن تحمل إليهم البضائع والحرائر وما وصل إليه الإنسان من اختراع وابتكار في أرض تبدو لهم بعيدة... إنهم يفرحون بالقادمين، ولسوف ترى العجب عند الرحيل!».

توقف القبطان عن الحديث وقد سهمت عيناه. جذب نفساً من غليونه ثم زفر زفرة قال بعدها:

«غير أن في هذه الجزر سر لا يدريه إلا من قُدر له أن يدريه!».

هتف السندباد وقد استبد به الفضول:

«وما هو هذا السر أيها الربان جزاك الله عني خيراً!».

فجأة... برقت عينا الربان ببريق سعادة لم يخف عن عيني السندباد، وكان الرجل ينظر الآن نحو المعبر الواصل من الرصيف إلى السفينة، التفت السندباد إلى حيث تسمرت عينا الرجل، فإذا سيدة في منتصف العمر، رشيقة القوام فارعة القد متزنة الخطى تلوح بيدها مهرولة وقد اجتاحت السعادة ملامحها... كان جمالها خليطاً من أجناس البشر، فلا هي بالبيضاء ولا هي بالسمراء ولا هي بالصفراء أو الحمراء... كشعرها الأسود الفاحم المسترسل خلف العنق السابح فوق الكتفين كانت تتماوج في سيرها واثقة الخطى... غمغم الربان وكأن روحه سلبت من جسده:

«حذار يا سندباد من الوقوع في المحظور!».

«وما هو المحظور أيها الربان؟!».

«هـو الجنة والجحيم معـاً، هو الوصل والفـراق، هـو العـذاب والسعادة!».

«وهل يقع الرجال عادة في مثل هذا المحظور؟!».

«حـذار. . . حذار يـا ولدي من العيـون المستطلعـة، والشعور المسترسلة، فالرباط مع أهل هذه الجزر لا فكاك منه مهما حاولت ومهما سافرت ومهما هربت ومهما طالت غيبتك!».

«وهل وقعت أنت في هذا الأسر؟!».

«إذا سمعت وجيب قلبك فأسرع عائداً إلى السفينة ولا تبـرحها حتى تبرح الميناء».

أحس السندباد بالحيرة، أدرك أن لا بد له من الانصراف فالسيدة كانت تقترب من حيث كانا، هتف في ضراعة:

«زدني علماً!».

قال الربان:

«العلم عند علام الغيوب، فالحذر لا يمنع القدر، ومهما طـال الزمن، فلا بد للشوق من أن يحرق قلب المشتاق إلى الحقيقة!».

واستقبل الربان امرأته. . . وغادر السنـدباد السفينـة، ولم يكن يدري أنه واقع في المحظور لا محالة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

بحيرة الألوان السبعة!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس:

«اعلم يا ولدي أن تلك كانت ليلة وذاك كان يوماً لا يمحيان من الذاكرة مهما طال الزمن أو امتد العمر... هما ليلة أعقبها يوم أقلعت بعدهما السفينة وقد رأيت فيهما دنيا تكاد ألا تكون دنيانا التي عرفناها، وسمعت حديثاً تقطر معانيه بالحكمة!».

هتف الفتى وقد استبد به الشوق إلى المعرفة:
«فماذا رأيت أكرمك الله وأعزك؟!».

نظر السندباد نحو قرص الشمس المنحدر نحو الغرب، فبدا وكأن عيناه قد تعلقتا به، وتشبثتا بسفر يبدو مستحيلاً، ما لبث أن نهض من مجلسه قائلاً:

«فلنؤد الفريضة أولاً ثم نكمل حديثنا؟!».

على شاطىء الغدير توضأ، وفوق الأديم أديا فريضة العصر وانتظرا حتى غابت الشمس فصليا المغرب... خلع السندباد عباءته وأوثقها إلى فرع من فروع الشجرة فصنع منها سقفاً يحميها كل الليل... أسند ظهره إلى جذع الشجرة ومدد ساقيه في استرخاء، رفع عينيه إلى أعلا فسقطت في حجره ثمرة، امتدت يد الفتى فقطف ثمرة وراحا يتناولان طعام العشاء... وجد الفتى في طعم الثمرة غير هذا

الذي تذوقه من قبل، هم بالسؤال فإذا السندباد يقول مبتسماً وقد أدرك ما يدور بخلده:

«ليست العبرة في المأكول، إنما العبرة بالآكل!».

دهش الفتى لكنه لزم الصمت فلقد عرف المراد من القول... سبح السندباد بعينيه في الفضاء فكأنه يستجلب ما مضى من زمن ويستحضره، وما لبث صوته أن سرى في الليل سريان النسمة العذبة في يوم اشتد هجيرة...

* * *

قال السندباد أنه غادر الربان تاركاً إياه لملاقاة تلك السيدة التي بدت له وكأنها لا تمت إلى عالمنا بصلة... لم يكن فيها غريب وكان كل ما فيها غريباً، حدث نفسه بأن لكل شعب سماته ولكل أمة ملامحها... غير أن أكثر ما لفت نظره، هما تلك العينان الدامعتان والوجه المشرق بألف فرحة... وحتى طلع الصبح وأشرقت الشمس وانقشعت الغيوم وحملت الرياح معها ما كان بالأمس من عواطف وأمطار وأمواج مزمجرة، كان السندباد يرقب ما حوله في دهشة... فما تغير شيء في ساحة الميناء من مرح أو غناء ورقص وضحكات... ظل الحابل مختلطاً بالنابل، والكل يحادث الكل، والكل يضاحك الكل، وكلما اقترب السندباد من رجل وألقى عليه السلام أو السؤال، لوح الرجل ضاحكاً جاذباً السندباد من ذراعه كي يشارك الجميع ما هم فيه!.

استبدت به الحيرة فما درى ماذا يفعل وإلى أين يذهب... غادر السفينة إلى ساحة الميناء وعاد من الساحة إلى السفينة، حتى إذا كانت لحظة وقعت فيها عيناه في ركن من أركان السفينة حيث يحفظ البحارة لفافات الحبال وأكوام الجنازير ومعدات الإبحار، على بحار عجوز يجلس هناك وحده، يدخن غليونه في صمت، ويطل على ما يحدث بعينين يسيل منهما الحزن مدراراً... اندفع السندباد نحوه وقد رأى فيه

من يستطيع أن يجاذبه أطراف الحديث ويجيب على أسئلة كانت تلاحقه دون جواب... ألقى عليه التحية فرد العجوز بأحسن منها، جلس السندباد إلى جواره فوق لفافات من حبال غليظة، وما أن هم بالسؤال حتى قال العجوز:

«لكل إبحار شاطىء، ولكل طريق نهاية، ولكل أجل كتاب!».

هم السندباد بالسؤال فإذا العجوز يردف وهو يشير بطرف الغليون إلى رأسه:

«اعلم يا بني أن في رأسك ألف سؤال وسؤال، وفي صدرك شوق المعرفة... لكن الطريق إلى الحقيقة محفوف بمخاطر لا يخوضها إلا ذو الهم!».

«وكيف السبيل إليها أعزك الله؟!».

أومأ العجوز نحو الساحة قائلاً:

«في قلب الناس تجد الحقيقة، وتحت الثرى كنوز تحكي ما لم يعرفه بني الإنسان بعد!».

«أتزودني بنصيحة أتبعها؟!».

«إياك والمحظور!».

خفق قلب السندباد وقد تذكر قول الربان فهتف:

«وما المحظور متعك الله بالصحة وطول العمر!».

«كلاهما مرهون بأمره!».

في إلحاح سأل السندباد:

«ما المحظور؟!».

سالت النظرات حزينة من عيني العجوز، زم شفتيه كأنه يمنع

نفسه من الحديث، ظل السندباد صامتاً منتظراً حتى جاء صوت العجوز أخيراً:

«لم لا تشارك الناس نشوتهم؟!».

«حذرني الربان من المحظور كذلك فعلت أنت!».

«الحذر لا يمنع القدر!»

«وهل يقع من كان مثلي فيم تخشى عليّ منه؟!».

«لكل قدره، ولكل طريقه المرسوم في غيب لا يعلمه إلا الله!».

عاد السندباد يلح:

«هل يقع من كان مثلي في المحظور؟!».

«أصابع اليد الواحدة لا تتشابه!».

«لم لا تجيب على سؤالي؟!».

«وكيف أعلم ما لا يعلمه إلا الله!».

«طلب مني الربان أن أعود إلى السفينة إذا ما اقترب المحظور مني!».

«غير أن الحذر لا يمنع القدر... الحذر يا ولدي لم يمنع القدر يوماً؟!».

* * *

غادر السندباد السفينة واجف القلب متردد الخطى لاهث الأنفاس... غاص في لجة الزحام والضجيج ورنين القبلات وصدح الموسيقى... كان الليل قد ولى وانبلج الفجر بنوره الساجي وصعد قرص الشمس مرسلاً أشعته الحانية كي تضيء الدنيا... في وسط ساحة الميناء وقف شاب تحت عامود نور في يده آله يسمونها الجيتار،

راحت أصابعه تتلاعب بأوتارها في سرعة كي تصدر أنغاماً كأنها تسابق الشياطين في سرعتها. ثم تخف أصابعه عن الأوتار فإذا النغم حزين... وفيما بين الحزن والفرح، وبطء الإيقاع وسرعته، كان الجميع يغنون ويرقصون ولا يتوقفون... جذبه بعض الشباب كي يشاركهم فارتبكت خطواته، أمسكت بيديه فتاة راحت تدور به وسط الساحة والجميع يصفق... راح يدور معها ويدور، وتدور الدنيا من حوله وتتطاير المرئيات والوجوه... عنفت دقات قلبه وتلاحقت أنفاسه ومادت الأرض تحت قدميه حتى إذا أفلتت الفتاة يديه اندفع جسده طائراً حتى ارتمى وسط الصيحات والتصفيق بين أذرع شباب حملوه حملاً رفيقاً، ألقوا به إلى أعلا ثم التقطوه ثم ألقوا به ثم صبوا في فمه شراباً لما ذاق أحلى منه في حياته... حتى إذا وضعوه فوق أرض الساحة أحس وكأنه ما عاد سندباداً الذي كان... توقف لثوان حتى يلتقط أنفاسه فإذا الكل لاه عنه وكأن ما كان لم يكن... ركضت الدماء في عروقه مزغردة، ودب النشاط في أوصاله وانتابته رغبة عارمة في الغناء... تلفت يمنة وتلفت يسرة وكان يشعر وكأنه استطال واستعرض وانفتلت عضلاته فإذا به يغني مع المغنيين، ويصفق مع المصفقين، وبينما هو يغني ويصفق وقد أخذت منه النشوة كل مأخذ، انفرج الجمع عن فتاة ممشوقة القوام مستديرة الوجه رقيقة الملامح، يحيط بالوجه إطار من شعر فاحم، تطل من وسط الإطار عينان سوداوان عميقتا الغور... اجتذبت العينان عينا السندباد فإذا وجيب قلبه يتسارع، وتتردد أنفاسه لاهثة فكأن الوجه يطل عليه من زمان سحيق، أو كأنه رآها، كأنه عاشها، كأنه منها وكأنها منه!.

راحت الفتاة تدور في الحلبة حاملة في يدها سلة مليئة بثمر غريب الشكل غريب اللون... ظلت تدور وتدور وكأنها تبحث عن أحد بعينه، يلتمع لونها البرونزي في ضوء الشمس الواهن، ينسدل على جسدها في احتشام ثوب من مادة لا هي بالقماش ولا هي بالجلد، لا

يبين منها سوى الوجه واليدان وحتى القدمين كانت ترتدي فيهما حذاء من جلد ماعز يتهدل شعره فوق الحذاء متمسحاً بالأرض المبللة.

كانت الفتاة وطافت حاملة سلة الفاكهة في يسراها وفي يمناها حبة من ثمرها الغريب اللون والشكل، تمتد بها اليد باحثة عمن تعطيها له، وعشرات الأيدي تمتد هي الأخرى في محاولة لاختطاف الثمرة دون جدوى. . . حتى إذا بلغ الطواف بها غايته توقفت، ثم ألقت بالثمرة إلى أعلى فإذا عشرات الأيدي تمتد في لهفة، وإذا الثمرة تسقط في يد السندباد دون سواه. . . وإذا الكل يهلل، وإذا الكل يصفق، وإذا عشرات الأيدي تصافح السندباد الذي بلغت نشوته حداً جعله يقضم من الثمرة قضمة فإذا مذاقها وكأنه يحوي كل مذاق، حلوه مثل المر فيه، والمر فيه أحلى من العسل، وللحلاوة فيها مذاق بالغ المرارة. . . راح يلتهم الثمرة التهاماً، فإذا الفتاة تعطي السلة لسواها، وإذا هي تخترق الجموع متقدمة منه. . . حتى إذا وصلت إليه توقفت، سددت إليه نظرة اعتصرت قلبه اعتصاراً. وتحدثت النظرات بلغة مست وجدانه، قالت النظرة اتبعني فلبت قدماه الطلب قبل رغبته، انفلتت الفتاة فجأة، فإذا هي، كالسابحة، تغطس في قلب الجموع فما عرف لها طريقاً، راح السندباد يخوض وسط الناس بحثاً عنها. حتى إذا لاحت له على البعد اندفع فإذا به في اندفاعه يصطدم بالربان وكان يقف وسط الناس تجاوره امرأته تلك الغريبة، التقت عيونهما في لحظة فتبسم هذا قائلاً:

«ألم أحذرك من الوقوع في المحظور يا سندباد؟!».

تذكر السندباد وكأنه يصحو من حلم، حديثه مع الربان. . . لكن قدماه تحركتا بالرغم منه سعياً وراء الفتاة وكانت قد اختفت، مضى في طريقه فإذا صوت الربان يلاحقه:

«إذا سمعت وجيب قلبك فأسرع عائداً إلى السفينة ولا تبرحها حتى تبرح الميناء!».

غلبته قدماه على أمره فاندفع لا يلوي على شيء. . . راح يهرول هنا وهناك مسلوب الإرادة فإذا هو يغادر الساحة إلى شوارع المدينة. . . تلفت هنا وهناك فلم يجد سوى الصمت والفراغ، وكانت المدينة خالية إلا من رجل يقف بباب حانة، أو امرأة تهرول في طريقها إلى ساحة الميناء. أو طفل يحمل سلة مليئة بالخضر والفاكهة وهو يهرول كأنه يسابق الزمن. . . توقف لاهثاً، أمعن النظر فيما حوله فإذا البيوت صغيرة دقيقة وكأنها مضارب أقزام، الأبواب واطئة والطوابق قصيرة والنوافذ مثل فتحات في لعب للأطفال. . . كان قد ابتعد في سعيه عن ساحة الميناء فخفتت أصوات الغناء والموسيقى، وتسربلت الدنيا برداء من سكوت بعث إلى نفسه بالسكينة، لكنه أحس بالعطش حارقاً فكأنه لم يعرف للري طعماً. . . اختفت ذات الوجه البرونزي والعينان الناطقتان بلغة نافذة إلى القلب. . . انتقل من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة فكأنه يسعى في مدينة للأقزام، حتى إذا خطا إلى ساحة تتوسط البيوت، أحس في ساقه بلدغة صرخ بعدها قافزاً وقد ظن أن اللدغة لثعبان أو عقرب. . . نظر إلى الأرض فإذا نبع من بخار ملتهب تنفثه الأرض وكأنها تمهد لحمم متصاعدة من جوفها، حول النبع كانت هناك قطع متناثرة من معدن. . . اقترب من النبع فإذا به يطأ نبعاً آخر تندفع منه المياة في رفق، كانت المياه في النبع الجديد باردة كالثلج. . . راح يمعن النظر ويردد البصر فيما بين هذا الملتهب وذاك المثلج، اقترب من النبع البارد فإذا كفان صغيران رقيقا الجلد دقيقا الأنامل، تبدو أصابعهما كأنها ثمر من فاكهة نادرة، اغترفت اليدان من الماء وارتفعتا إلى شفتين مكتنزتين، خفق قلب السندباد وهو يرتد إلى الخلف، فلقد كان الوجه وجه فتاته وكانت ترشف من المياه في كفيها وهي ترميه بنظرة نافذة إلى القلب، ما لبثت أن اغترفت من النبع مرة أخرى وقدمت له كفيها، رغم عطشه اللاهب تردد، أخذ منه الوجه الوضيء كل مأخذ، ووجد نفسه ساهماً هائماً حالماً فكأنه في السموات، تحدثت عيناها إليه متسائلة إن

كان يريد أن يشرب، فقال وكأن لسانه يلبي دون إرادة منه:

«حلقي ملتهب لكن عطشي ليس للمياه!».

لاحت على وجهها ابتسامة وقدمت كفيها نحوه أكثر وجاء صوتها كنغم ساري:

«أرشف من نبعنا رشفة قد تجد فيها راحة!».

كأن القول أمراً لا يحتمل العصيان انحنى السندباد ورشف ما في كفيها من مياه فإذا عذوبتها تنفذ إلى نخاعه، أتى على المياه ورفع إليها رأسه فسألته:

«هل ارتويت؟!».

«الحمد لله من قبل ومن بعد!».

«في عينيك سؤال فلم لا تسأل؟!».

«أبحث عن ري لا كالري، وعن شبع ليس كالشبع!».

التمعت عيناها ببريق من وصلته الرسالة، هتفت في مرح:
«فهل شاهدت جزيرتنا؟!».

«في وجهك معالم قارة لم تطأها قدم بشر!».

«كي تعرف لا بد من السعي!».

«العمر محدود، وعمر الإنسان في عمر الزمن لحظة!».

ابتسمت وكأنها تربت عليه في حنان، سألت:

«أولم تعرف بعد؟!».

نظر إليها متسائلاً لاهث الأنفاس فأردفت:

«كلنا من آدم وحواء، فكلنا حواء وآدم!».

هم بالحديث فمدت يدها نحوه فما تردد، كالمنوم قدم لها يده وكانت تقول:

«لا تضيع ساعة من عمر في سؤال دون بحث!».

سار معها خطوة ثم تردد... التفتت إليه فقال:

«حذرني الربان من المحظور!».

قالت ضاحكة:

«ألم ينبئك العجوز أن الحذر لا يمنع القدر؟!».

فانطلق معها لا يلوي على شيء!!.

* * *

حان وقت صلاة العشاء فأقامها السندباد وصلى بالفتى الفرض ثم اتبعه بالشفع والوتر... حمد الله وأثنى عليه ثم عاد إلى مجلسه وكان يبدو راضي النفس وضاء الجبين، صعد البدر إلى كبد السماء فتعلقت عينا السندباد بقرصه الفضي ولاحت على وجهه ابتسامة من تذكر شيئاً... كان الفتى لا يزال شاخصاً إليه مبهور الأنفاس في انتظار ما سوف يجود به السندباد من حكى!.

مضت لحظات قبل أن يسري صوت السندباد في هدأة الليل قائلاً أن الفتاة طافت به المدينة من أقصاها إلى أقصاها فما أخذ الأمر منها سوى ساعة وبعض الساعة... كانت المدينة صغيرة تتناثر في شوارعها تلك العيون الباردة والبراكين الصغيرة التي تنفث بين الحين والحين حمماً سرعان ما تبرد متناثرة فيما حول العيون... هم السندباد في لحظة بسؤالها وكانا يقفان أمام أحداها فما انتظرت منه سؤالاً، قالت:

«اعلم يا سندباد أن جزيرتنا هذه واحدة من تسع جزر تتناثر متجاورة وسط المحيط صانعة أرخبيلاً بركاني الأرض خصب التربة...

وأن هذه العيون التي تراها ليست سوى بقايا ثورة بركانية وزلازل حدثت في الأزمنة السحيقة. فخسفت الأرض وجاء الطوفان فما بقي من قارتنا سوى قمم الجبال فيها. . أبقاها الله كي تكون للإنسان نذيراً فما اتعظ!!».

تلفت السندباد حوله فإذا الجبال الخضراء تحيط بالمدينة شامخة تطاول السحاب الساري في الفضاء العالي قالت الفتاة وهي تغادر بالسندباد المدينة إلى حيث سفح جبل راحا يصعدانه:

«ظلت جزرها لعشرات القرون مجهولة لبني الإنسان. . . وكان فيها ما يكفيها، حتى إذا كان القرن الرابع عشر بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وكانت محاولات الغوص في لجة المحيط تنتاب الكثيرين من أهل المعمورة. . . حتى قيض الله للإنسان أن يكتشف هذه الجزر، وكان هناك أمير من أمراء بلاد البرتغال مولع بالعلم والفلك مجنوناً بالملاحة فأطلقوا عليه اسم «هنري الملاح»، أرسل أسطولاً كشف عن جزر في المحيط أطلقوا عليها اسم «كناري»، وجزيرة أخرى اسموها «ماديرا»، ثم اكتشفوا جزرنا هذه. . . وبالرغم مما رأوه فيها وما حزروه من تاريخها، فإن الإنسان بعد، لا يريد أن يصدق، ولا يريد أن يتعلم!».

كان حديث الفتاة غريباً يبعث على الدهشة كما يبعث على الخوف وإعمال الفكر. . . كانت تحكي عن الدنيا وكأنها ليست دنياها، وعن العالم وكأنه غريب وافد، وكلما أراد السندباد أن يسأل جاءته الإجابة قبل أن ينبس ببنت شفة، مرا في طريقهما الصاعد بفلاح يسير خلف ثور يحرث الأرض من تحته، لوحت الفتاة للفلاح فلوح لها، في عنق الثور إناء من صفيح في داخله قطعة من خشب كانت تطلق، مع هزات الثور كلما سار، صوتاً مكتوماً يتردد صداه في سفح الجبل فإذا الصوت يرد على الصدى وإذا الصدى يختلط بالصوت الآتي من عنق ثور آخر غير بعيد فإذا الأمر مثل معزوفة فريدة من نوعها. . . قالت له

الفتاة إن مواريث الأجيال والأزمنة علمت فلاح الجزيرة أن القليل الدائم خير من الكثير الزائل، وأن نعم الله تكفي كل دابة يخلقها. وأنه لولا طمع بني آدم لتحولت الأرض إلى جنة!.

توقفت الفتاة في لحظة ثم التفتت إلى حيث تمتد الخضرة قائلة:

«أنظر!».

التفت السندباد إلى حيث أشارت فإذا قلبه يخفق مع أنفاسه اللاهثة... كان المشهد أمامه صورة فذة لجنة أرضية، وإذا المدينة بعيدة عميقة. تربض في واد سحيق على شاطىء المحيط... والأشجار هنا وهنالك خضراء باسقة وكأنها لا تعرف الذبول... اكتشف السندباد أنهما صعدا من سفح الجبل كثيراً فدهش، التفت نحو الفتاة فقالت:

«إن الصعود على سفح المعرفة أصعب بكثير من صعود هذا الجبل الذي تطاول هامته السحاب!».

رفع السندباد رأسه إلى أعلا فإذا السحاب قريب تكاد يده أن تلمسه، هتف:

«إلى أين نحن ذاهبان؟!».

أشارت نحو قمة الجبل وقالت:

«إلى حيث تريد وتقدر!».

رفع السندباد رأسه... لم تكن هناك قمة للجبل تراها العين فلقد كانت جحافل السحاب تتكاثف وقد تسربل بها الجبل فكأنه يرتدي غلالة من أحلام... قال لاهثاً:

«هل صعدنا كل هذا؟!».

«ليست العبرة بالصعود، إنما العبرة ببلوغ الغاية!».

هم بالسؤال فواجهته كمن تقرعه:

«لقد أردت الصعود يا سندباد فلا تفكر فيم تجشمت!».

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تناديه فيها باسمه فلم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال:

«كيف عرفت اسمي؟!».

أجابت على سؤاله بما كان يشعر به، قالت:

«لا بد أنك جائع!».

قبل أن يرد اندفعت إلى دغلٍ قريب واختفت بين الأشجار، تلفت السندباد حوله فانتابه الخوف عربيداً، بدا له الارتفاع شاهقاً، والصعود، مع يسره، مرهقاً، والدرب الصاعد والهابط يرسم على جسد الجبل خطاً متعرجاً مثل حية تسعى... وكأن السكون يكمن في عمق سكون أعظم، سكون يزيد من عمق صوت الآنية المعلقة في رقاب الثيران فكأنها تراتيل ملائكة تسبح بحمد الله... داخله الخوف وراودته نفسه بالعودة من حيث أتى، فإذا ضحكتها تأتي من قلب الدغل، ثم إذا بها تهل عليه من وسط الأشجار متسائلة:

«هل داخلك الحزن؟!».

كانت تحمل في يدها برتقالتين كبيرتين لم ير السندباد في حياته أكبر منهما... مدت إليه يدها بواحدة ثم افترشت الأرض الندية وراحت تنزع عن البرتقالة قشرتها... مع الجوع كان العطش يلهب حلق السندباد فروته البرتقالة وأشبعته. ساد الصمت فبدا له وكأنه حضن يرد إليه روحاً افتقدها، مضت لحظات قبل أن يأتيه صوت الفتاة وهي تنظر إلى المدينة السحيقة مغموساً في حزن سال من العينين:

«جاء الطوفان ثم انقضى فما تعلم الإنسان شيئاً!».

التفت نحوها وقال كأنه يواسيها:

«لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض!».

هتفت كمن تنهره:

«على أن يكون الدفع بلا دماء تراق!».

هم بالحديث فإذا هي تردف غاضبة:

«إذا نطقت بالحكمة فعليك أن تدرك معناها!».

قفزت ناهضة وتنفست على صدرها وشدت قامتها فإذا هي مثل تمثال لنقاء خالص... ما لبثت أن هدأت، التفتت إليه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة. هدهدته مداعبة:

«ألا تريد أن ترى البحيرة ذات الألوان السبع؟!».

هب واقفاً وهو يسأل:

«بحيرة مياهها ملونة؟!».

«بحيرة لمياهها سبعة ألوان!».

«وكيف كان هذا؟!».

«انتظر ولسوف ترى!!».

* * *

كحواديت الجدات كان حديثها، راح يتبعها صاعداً وكان الصعود هذه المرة أيسر... سبحت به عبر التاريخ. واستجلبت معه الماضي وكأنها تقرأ كتاباً مفتوحاً... قالت إن الإنسان منذ وطئت قدماه أرض هذه الجزر وهو في محاولة دائبة لمعرفة أصلها وتاريخها... غاص البعض في المياه القريبة والبعيدة، وجاءت وفود العلماء كي يدرسوا الأرض والتربة... لكنهم أبداً لن يصلوا إلى شيء... هتف السندباد

وكانا الآن يعبران سحابة كثيفة مرت بهما فاختفى كل منهما عن نظر صاحبه:

«كيف تجزمين بأنهم لن يصلوا إلى شيء؟!».

من وسط السحاب الساري جاء صوتها:

«كيف تعرف إنساناً وأنت بالنسبة إليه مجرد زائر أو عابر سبيل؟!».

قبل أن يرد كانت تخرج من غلاله السحاب كملاك بلا أجنحة، أردفت:

«لكي تعرف مكاناً لا بد لك أن تعيش فيه، أن تحبه وتنتمي إليه!».

«وهل عرفت شيئاً لم يعرفه الآخرون؟!».

«المعرفة بقدر الطلب!».

كانا قد اجتازا السحاب صعوداً فإذا السندباد يجد نفسه في حلم، كان ـ معها ـ يقف فوق قمة جبل تبدو وكأنها تنبت من سحاب متراكم كان يمر الآن تحت قدميه... بدت عليه الدهشة فامتدت يدها كي تأخذ بيده وتمضي به في درب قادهما إلى مزرعة مغطاة بقماش لامع، قالت:

«يزرع الفلاح هنا ثمر الأناناس الاستوائي!».

دلفت إلى الخيمة وغابت للحظات ثم عادت تحمل في يدها ثمرة أناناس وهي تقول:

«سوف نحتاج إليها إذا ما عضنا الجوع!».

صعدت به درباً أوصلهما إلى ذروة الجبل فكأنهما يسبحان في الفضاء... انداحت السحب فكشفت عن واد جد سحيق، في عمقه

البعيد بدت لعيني السندباد في قلب الجزيرة بحيرة ملونة المياه. . . هتف غير مصدق فلقد كانت مياه البحيرة مقسمة إلى سبعة ألوان. . . ومن حولهما كان السكون كالأبدية، وأصداء الأواني في أعناق الثيران تتردد كالتسابيح، جلست الفتاة فجلس إلى جوارها، أمسكت بثمرة الأناناس وراحت تنزع عنها قشرتها وهي تقول:

«هذه ألوان الطين تصنعها أشعة الشمس بانعكاسها على بخار المياه المتصاعد من مياه البحيرة!».

«تبدو الدنيا هنا وكأنها الجنة!».

هكذا قال السندباد فالتفتت إليه باسمة، قدمت له من الثمرة فأكل. . . كانت الشمس الآن تنحدر نحو الغرب في رحلتها الأبدية، وتعالت على البعد صفارة السفينة تعلن عن اقتراب موعد الرحيل، انقبض قلب السندباد وانتفضت هي ملتفتة إليه، تلاقت العيون في حديث مليء بالشجن، ترددت أصداء صفارة السفينة فيما بين سفوح الجبال المحيطة بالبحيرة مثل نذير. همست:

«هل تعود؟!».

طافت عيناه بما يحيط به حتى استقرتا فوق وجهها فاندفع الدمع إلى عينيه يحجب عنه الرؤية. همس وكانت كلماته حزينة:

«كأني أعرفك قبل أن أولد!».

«الميلاد كالموت خطوة في رحلة لا يعلم مداها إلا الله!».

جاشت نفسه فعاد إلى الهمس:

«خلفت ورائي أهلاً ينتظرون!».

«وسوف تترك وراءك قوماً يريدون!».

«وكيف أجد لنفسي مكاناً بينكم!».

أشارت إلى ما يحيط بهما قائلة:

«أرض الله واسعة!».

«لا زال هناك ما أسعى إلى معرفته!».

«إذن فعليك بالرحيل!».

أراد أن ينهض فلم يستطع، أراد البقاء وأراد الرحيل، علت صفارة السفينة مرة أخرى وتردد صداها في الكون السابح فوق السحاب، قال:

«باقي من الزمن ساعة وبعض ساعة!».

«قدر الإنسان هو الاختيار!».

«يبدو لي الأمر مثل حلم!».

«الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا!».

«أنى لي أن أعرف اليقظة من النوم!».

«ألم يحذرك الربان؟!».

«حذرني!».

«ألم ينبهك الشيخ؟!».

«نبهني!».

«فلماذا أتيت؟!».

تنبه إلى مغزى الحديث فهتف زاخراً:

«قدر الإنسان هو الاختيار!».

«فليكن اختيارك نابعاً من ذاتك!».

«أخشى الندم يوماً!».

«لن تندم طالما كان طريقك هو السعي إلى الحقيقة!».

«وهل أصل إليها يوماً؟!».

ألقت الفتاة ببصرها نحو البحيرة الملونة تحت أقدامهما، ساد الصمت للحظات قالت بعدها:

«قد تبدو الحقيقة يوماً مثل هذه الألوان السبعة!».

«وكيف كان ذلك!».

«المياه أمام عيوننا ملونة، وليس اللون فيها سوى وهم!».

ارتجف قلب السندباد بالأسى، وعاد صوتها يردد:

«ليس اللون سوى وهماً... ليس سوى وهماً!».

* * *

كانت السفينة تتأهب للرحيل، وكان أهل الجزيرة جميعاً هنالك فوق الرصيف... مالت الشمس غاربة فأرسلت أشعتها البرتقالية إلى الوجود فاصطبع الكون بلون أسطوري... على ظهر السفينة وقف السندباد وسط البحارة والتجار والركاب ملتصقاً بالسياج... كان الرصيف مليئاً بالوجوه المتطلعة والأيدي الملوحة، وسط الجموع تشبثت عيناه بوجه برونزي اللون، يحيط به إطار من شعر فاحم، وكما كان الدمع ينسال من عينيه كان الدمع ينسال من عينيها... حتى إذا ابتعدت السفينة في لجة المحيط، واختفت المدينة وذابت الأرض في الأفق، تحرك السندباد عائداً إلى الداخل يجر قدميه جراً... ما كاد يخطو خطوات حتى توقفت عيناه عند وجه الشيخ الجالس فوق لفات الحبال، كان لا يزال يدخن غليونه باسماً، ما لبث الشيخ أن سأل السندباد في صوت بدا له شديد الحنان:

«ماذا رأيت يا سندباد؟!».

قال السندباد:

«رأيت اللون وهماً يا أبتاه... رأيت اللون وهماً!».

وراحت السفينة تسعى به إلى أرض جديدة!.

زابيا الهنديّة!

ما إن انتهى السندباد من حكايته مع جزر الأزورس حتى هتف الفتى متسائلاً:

«وماذا عن الهند يا سندباد؟!».

سأله السندباد باسماً وقد فوجىء بالسؤال:

«ماذا عن الهند يا بني؟!».

«هل زرت الهند؟!».

«كثيراً!».

«كيف تبدو؟!».

صمت السندباد لثوان قال بعدها:

«كانت في كل مرة كما كانت أول مرة!».

«وكيف كان ذلك؟!».

مال السندباد نحو الفتى باسماً وهو يقول في رفق:

«حان وقت النوم يا ولدي، وعليك أن تعود إلى بيتك وأهلك، كي تسعى في الغد وراء رزقك ولقمة عيشك، حتى إذا انصرم اليوم، وأوفيت لكل ذي حق حقه، وقدمت لبيتك ما هو في حاجة إليه منك.

ستجدني في انتظارك. . . وليكن موعدنا بعد صلاة المغرب!».

لم يكن الفتى يملك ـ مع شوقه الشديد لسماع السندباد ـ أن يجادل أو يراجع، ذلك أنه رأى في عيني السندباد نظرة كانت آمرة، فنهض مسلماً، ومضى عائداً إلى المدينة لا يلوي على شيء!.

* * *

عندما حانت صلاة المغرب في اليوم التالي، نهض السندباد إلى الغدير فتوضأ وصلى الفرض ثم أتبعه بركعتي السنة. . . كان وجهه الآن يبدو وكأنه يشف عن روح ظلت خافية لسنوات، وكأن التأمل ليوم واحد لا يزيد، قد أمده بفيض لا نهاية له من الذكريات، ولكل ذكرى قصة، ولكل قصة مغزى، ولكل مغزى سبيل لا يسلكه المرء إلا إذا تسلح بالحكمة، ولا يؤتى الحكمة إلا من سعى إليها، وتحمل مشقة هذا السعي!!.

ما إن انتهى السندباد من صلاته حتى حمد الله وأثنى عليه، ثم رفع كفيه إلى السماء داعياً:

«اللهم إني عدت إليك محملاً بالأخطاء والخطايا. . . شفيعي لديك بعد الرسول أني كنت باحثاً عن الحقيقة الكامنة في ملكك اللامتناهي. . . اللهم إني عذت بك من شر نفسي فأعفيتني منه، وعذت بك من الوقوع في المعاصي، فعصمتني إلا من بعض ما وسوست إلي به نفسي والنفس يا ربي أمارة بالسوء. . . فإن كانت أخطائي كبيرة، فرحمتك وسعت كل شيء وكل مخلوق. . . اللهم إني أبت إليك تائباً فأذقني لذة التوبة ونعيم القبول. . . اللهم لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك، أنت خالقي، وأنت أعلم بي مني. . . اللهم أحسن ختامي، واجعل خطايا شبابي درعاً يحميني في شيخوختي. . . اللهم تقبل!».

طالما طال شوق السندباد إلى تلك اللحظات التي يأوي فيها إلى

نفسه وربه. . . كان سعيه في الدنيا مليئاً بالمكابدة والتعب، فاضت نفسه بالأسى، كما فاضت بالشوق إلى لحظات يمتلىء فيها قلبه بالسكينة. . . فاضت عيناه بالدمع عندما سمع خطوات الفتى تحث السير إليه. . . مسح دمعه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة، وأسند ظهره إلى جذع الشجرة، حتى إذا جاء الفتى وحياه رد عليه التحية بأحسن منها ثم سأله:

«كيف كان يومك؟!».

قال الفتى زافراً وكان وجهه ينبىء عن كدر واضح:

«الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!».

«أوكان يومك صعباً؟!».

هتف الفتى في تذمر:

«أن يخسر المرء في تجارته مرة أو مرات، أمر يحدث بين الحين والحين كلما اشتدت الحاجة وعز الطلب. . . ولكن، أن يخدعك الناس وأنت مفتوح العينين صاحي العقل، فهذا ما لا تملك إلا أن تندم عليه!».

«وهل يجدي الندم؟!».

صمت الفتى محملقاً في السندباد كمن بوغت بالسؤال، مضت ثوان قبل أن يتمتم:

«ما يؤلمني يا سندباد أني كنت أشك في أمر هؤلاء الذين خدعوني لكني لم أتراجع!».

«لا بد أن تُخدع مرة، حتى لا تُخدع دائماً!».

اتسعت عينا الفتى وكأن باباً للخلاص من الكدر قد فتح أمامه، وأردف السندباد:

«فماذا تقول عمن ترك نفسه للخديعة راضياً؟!».

«أوكان راضياً أن يخدع؟!».

«لكل مقام مقال ولكل نتيجة سبب!».

«وكيف كان هذا؟!».

«ألم تسألني بالأمس كيف رأيت الهند؟!».

«وكان جوابك أنها في كل مرة، كانت، مثلما كانت أول مرة!».

«وهل فهمت ما قصدت إليه؟!».

«وكيف لي أن أفهم ما لم أحط به علماً؟!».

قال السندباد:

«إذن فاعلم يا بني أن الهند بلاد شاسعة تترامى أراضيها فكأنها قارة وحدها... يقول بحارة السفن العابرة للمحيطات والجوالة في البحار، أنك إذا عرفت الهند فكأنك عرفت الأرض جميعاً... ففيها يتجاور الصيف القائظ مع الشتاء القارس، والخريف العاري مع الربيع المورق، والصحراء الجدباء مع الأرض الخضراء، والغابات الكثيفة مع السهول الفسيحة، والجفاف القاحل مع الأنهار الفياضة... هي بلاد يعيش فيها الخير بأسمى معانيه بجوار الشر في أخبث صوره... ومن عجائب هذه البلاد أن أهلها يتحدثون بلغات تتعدد بعدد فصائلهم وقبائلهم، لكنهم يتفاهمون مع بعضهم البعض بلغة من استعمرهم واستحل خيرات بلادهم... هي بلاد يعيش فيها المسلم الموحد، مع المجوسي عابد النار، والمسيحي مع الهندوسي، والسيخ مع اليهود... وفيها سوف تجد الثراء في أفحش صوره، والفقر في أبشع حالاته... ومن أهلها من ارتفع بنفسه إلى حد الخلاص من الجسد والارتفاع إلى سماوات الروح المطلق، ومنهم من انغمس في طين الأرض فكأنه لا يريد أن يبرح أو يغادر!».

قال السندباد هذا ثم ركن إلى الصمت قليلاً، سبحت عيناه فِ الفضاء ثم عاد يقول كالهامس:

«وقد تجد كل هذا في إنسان واحد من أهلها!».

«إنسان واحد؟!».

هكذا تساءل الفتى دهشاً فأردف السندباد:

«إنسان مثل زابيا!».

«ومن تكون زابيا يا سندباد؟!».

«وراح السندباد يحكي!.

* * *

ظلت السفينة تمخر عباب البحر العربي لعشرة أيام أو تزيد يوماً أو يومين فما عاد السندباد بعد كل تلك السنين يذكر... طالت الرحلة عما كان مقدراً لها فلم تكن الرياح مواتية، سكن الهواء واستكانت المياه وتمدد سطح البحر إلى ما بعد الأفق فكأنه وحش أسطوري راح في سبات عميق... أحس الرجال أنهم يبحرون في فضاء سرمدي وكأن السفينة لا تسير ولا تتحرك!.

قال المخضرمون من البحارة للسندباد أن هدوء البحر مخيف مثل هياجه سواء بسواء، وإذا كانت الأمواج تبدو إذا ما غضبت وكأنها وحوش جائعة لا يشبعها إلا أن تطوي في جوفها السفن والقوارب بما فيها ومن فيها، فكذلك البحر في سكونه بلا رياح، يبدو مثل أبدية مجهولة الجوف والمستقر!.

ارتفعت حرارة الشمس فكأنها لظى يشوي الأجساد ويحرق الجلود، شحت المياه مع توالي الأيام، وأصبحت المؤن بقدر يكفي الرجال بالكاد حتى يصلوا إلى مبتغاهم!.

كانت السفينة في طريقها إلى واحدة من أعظم موانىء الشرق البعيد، كانت في طريقها إلى بومباي التي تقع على الشاطىء الغربي من بلاد الهند... غير أنه مع المشقة والمكابدة التي عانى منها الرجال، كانت ليالي السمر فوق سطح السفينة تخفف عنهم وطأة الملل والترقب... في تلك الليالي التي يتحول فيها الكون إلى بللورة درية يضيؤها قمر ليس كالقمر، هو قمر يرسل شعاعاً من ضوء كأنه الحلم، وينساب صوت حفيف السفينة بالمياه كوشوشة عاشق أو همس عابد... في تلك الليالي، ومع اقتراب السفينة يوماً بعد يوم من بلاد الهند، لم يكن للرجال من حديث إلا عن بومباي... عن رجالها ونسائها وسحر السحرة فيها وتنبؤات قارئي الكف ومستطلعي المستقبل، عن المهراجات والجواهر والعربات الفاخرة والأفيال المطهمة، عن النصابين والقرادين والقوادين وبائعي السراب ومروجي الوهم، عن النساك والعابدون والصائمون... كانت تلك ليال يغرق فيها السندباد في الأحلام، ويتتبع حديث الرجال لاهث الأنفاس مبهوراً... حتى إذا ما ألقى ذات ليلة سؤالاً، جاءه بدل الإجابة عشر إجابات، وبدل الطريق طرق وسبل، قال له بحار ذا ندبة غائرة في وجهه:

«إحذر يا سندباد من سحر الهند، فإنه لا يقاوم!».

سأله السندباد:

«أي سحر هذا؟!».

قال بحار آخر فارع الطول نحيل الجسد:

«في الهند كل شيء مغموس في السحر، حتى البشر!».

«وكيف أقاوم!».

قال ثالث ضاحكاً:

«بأن تقاوم!».

«ألا تدلوني على الطريق؟!».

قال رابع:

«إياك والاستجابة لكل داع!».

هم بالسؤال فقال خامس:

«أو عارض لبضاعة!».

«أو متسلل إلى نفسك بما تحب وتشتهي!».

«أو شيطان متسربل برداء ناسك!».

«أو صوفي يغريك بهجران الأرض والسعي إلى السماء!».

«أو شيطانة ترتدي ثوب عذراء!».

«أو رجل ينبئك بأنك كنت والده في حياة سابقة!».

راح الرجال يتقاذفون سمع السندباد حتى دارت رأسه فصاح:

«إذن فخير لي ألا أبرح السفينة!».

ضحك ملاح ضخم الجثة، مفتول العضلات، نهض من مكانه استعداداً للانصراف، وقف فوق رأس السندباد وربت على كتفه وقال:

«إن فعلت فكأنك تفقد كنزاً ستندم على فقدانه طوال العمر!».

حتى إذا أعلن الربان ذات صباح أن السفينة سوف ترسو على الشاطىء مع الغروب، دب النشاط في أجساد الرجال وتحولت السفينة إلى خلية نحل لا تهدأ... راحوا وجاءوا وعملوا وجهزوا العنابر والأوناش، وبدا كلاً منهم وكأنه يستعد للقاء معشوقة أو حبيبة أو زوجة، كرّت الساعات سراعاً، حتى إذا ما غادرت الشمس كبد السماء منحدرة نحو مستقرها، بدت اليابسة في الأفق مثل خيط رفيع من ضباب سرعان ما استبانت ملامحه مع اقتراب السفينة من الشاطىء أكثر... وعندما

عبرت السفينة مدخل الميناء كان قرص الشمس يلامس سطح الأفق البعيد، وقد اصطبغت مياه البحر بلون قان فكأن الدنيا غير الدنيا والسماء غير السماء، وتقاطرت القوارب من حول السفينة أشكالاً وألواناً، فيها من الباعة من يعرضون بضاعتهم من كل صنف ولون، من الحرير إلى الديباج ومن الفاكهة إلى الخضروات ومن المشروبات إلى البهارات. . . كان فيهم سماسرة راحوا يغرون البحارة والركاب بالرحلات والسهرات. . . ومن الركاب من راح يساوم، ومنهم من راح يشتري، ومن البحارة من أخذ يسلم ويبث البعض أشواقه بعد طول غياب. . . وتعالت الصيحات والهتافات وعقدت الصفقات، حتى إذا جاورت السفينة رصيف الميناء، وألقيت الحبال وقيدتها الجنازير. . . صرع من البحارة من كان قد انتهى من عمله. وتقاطر الركاب واحداً بعد الآخر. . . وكانت الميناء تتلألأ الآن بالأضواء والناس والشاحنات وضجيج الوصول. . . ارتدى السندباد أفخر ثيابه، واحتمل في حافظته من المال ما استطاع. . . وما إن غادر السفينة حتى أحاط به عدد من الرجال والشباب والفتيات إحاطة السوار بالمعصم، وراح كل منهم يعرض عليه بضاعته. . . هذا يعرض سواراً من ذهب، وذاك يعرض قرطاً من لؤلؤ، وثالث يعرض قماشاً من مخمل، ورابعة تهمس في أذنه بأن معها خاتماً كان في الأصل لمهراجا، وخامس يهمس في أذنه بأن ليل بومباي الأسطوري في انتظاره، وعجوز تمسك بكفه تريد أن تقرأ خطوطه، وفتاة تدس في يده ورقة تحمل عنواناً لمسكن. . . ووسط كل هؤلاء كان السندباد ملتزماً بنصائح من سبقوه إلى التجربة، راح يغذي السير نحو بوابة الميناء وقد صم أذنيه عن كل نداء أو غواية. . . غير أن الأمر بدا له تدريجياً، وكلما خطا خطوة، مثل حلم غريب وكأنه مساق إلى قدر محتوم، في الهواء ذبذبة غامضة تتخلل مسام الجلد وتمس شغاف القلب، إحساس غريب هذا الذي انتاب السندباد، في الجو رائحة تحار فيها الألباب، رائحة هي مزيج من عطور وبخور وتوابل،

هي خليط من عبق الماضي البعيد وأريج الحاضر، من خلف سور الميناء لاحت له مباني المدينة فكأنه مقدم على الشرق والغرب معاً. . . ما إن عبر بوابة الميناء حتى انقض عليه من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ من نفضوا للتو أيديهم من بحار سبقه إلى اليابسة، أو راكب وجد طريقه مع أحدهم. . .

كان فيهم من ذوي العاهات من راحوا يعرضون عليه عاهاتهم طالبين فلساً أو درهماً، وكان فيهم من هو مفتول العضلات قوي البنيان يدعو في همس كالضجيج إلى سهرة شرقية لا يحظى بها المرء مرتين في العمر الواحد، وكان فيهم من يرتدي أسمالاً بالية ويتحدث بلغة مجهولة، وفيهم من كان يرتدي من الثياب أفخرها ويحدثه بلغة أبناء القصور. . . سد السندباد أذنيه عن كل نداء وقاوم كل إغراء، غير أنه في لحظة توقف وقد شد انتباهه وجه غريب، وجه لازمه منذ أن غادر بوابة الميناء، وجه يحيط به إطار من شعر فاحم فكأنه لوحة نادرة راحت تظهر وتختفي، تقدم في سيره فكف البعض إلحاحهم عنه، وولد الشارع آخرين فما ظهر الوجه وما اختفى. . . كان وجهاً لفتاة سمراء، سمرتها الهندية الداكنة مشربة بحمرة حار فيها فهمه، في وسط الجبهة وفيما بين الحاجبين بقعة حمراء اللون كانت تضفي على الوجه جمالاً فوق جماله. . . كان شعرها الفاحم يسترسل مشدوداً إلى ما خلف الرأس في جديلة سميكة تنساب فوق الظهر إلى ما بعد مفرق الوسط، تغطي الرأس غلالة شفافة تنسدل مختلطة بالساري الزاهي اختلاطاً يحيل الألوان إلى نغم غامض. . . في وسط الوجه عينان واسعتان لهما لون بني شفاف فكأنه يشي للناظر بما خلف العينين من أسرار، كانت العينان مثل فصين من حجر كريم يسبحان في إنائين من دمع لا يفيض ولا يغيض.

ابتعد السندباد عن الميناء وخاض في شوارع المدينة فانفض عنه بعض من كانوا حوله وهم يسبونه وينعتونه بأقبح الألفاظ. . . اختفى

الوجه وطال اختفاؤه فتوقف السندباد بحثاً وقلقاً. . . كان توقفه في مفترق طريقين متقاطعين، كانت عيناه بالمكان فما وجد لها أثراً، هم بالسير عندما ارتفعت إلى جواره أصوات شابين كانا يتعاركان ويتسابان بلغة لا يفهمها. تطور العراك إلى شجار عندما صفع أحدهم صاحبه صفعة دوت في الطريق ولفتت الأنظار، وسرعان ما تدخل آخرون وتجمع الناس واختلط الحابل بالنابل ووجد السندباد نفسه وسط كرة متجاذبة من البشر، راحوا يتزاحمون ويتضاغطون من حوله حتى أحس وكأنهم يريدون أن يزهقون أنفاسه. . . فجأة، والسندباد حائر يريد الخلاص، صعد من قلب الجموع وجه الفتاة وكان القلق يصرخ محذراً في نظراتها، اقتربت منه هامسة:

«إحذر. . . فهم يسرقون نقودك!».

قبل أن يجيب كان الوجه قد اختفى وسط الأجساد الضاغطة عليه، كان لصوتها جِرْس غريب ورنين انساب إلى وجدانه، اجتذبت حلاوة الصوت انتباهه فلم ينتبه إلى ما قالته، حتى إذا تنبه امتدت يده بعنف إلى حين كانت حافظة نقوده فإذا يده تقبض على يد سبقته إليها. . . التفت في عنف نحو صاحب اليد فلم يمهله هذا بل وجه إليه لطمة أدارت رأسه، انتزع صاحب اليد يده من يده، وقبل أن يفيق السندباد كان هذا قد ذاب وسط الناس كما يذوب الملح في الماء. . . تراجع السندباد إلى الخلف وقد أحس بالخطر يحيق به، على البعد ظهر رجل شرطة كان أصوات العراك قد اجتذبته فانفض الجميع من حول السندباد مولين الأدبار. . . وكأن شيئاً لم يكن راح السندباد يبحث في المكان عن ذات الوجه الغريب، اقترب منه الشرطي وسأله إذا كان قد فقد شيئاً فهز رأسه نفياً وعيناه تجوسان في كل مكان، عاد الشرطي يسأله إن كان يبحث عن أحد، فارتبك السندباد وانصرف إلى حال سبيله لا يعرف إلى أين. . . أسلمه الشارع إلى آخر وهو في سعيه لا يعرف لنفسه طريقاً أو سبيلاً، في قلبه عطش محموم لفتاة أنقذته من الإفلاس ثم

اختفت. . . تذكر تحذير الرجال فوق السفينة فما ألقى إليه بالاً وعاد إلى استغراقه في خضم الشوق الذي اعتراه. . . على جانب طريق شاهد دائرة من الناس وقد أحاطت بساحر راح يعرض عليهم فنون سحره، راودته نفسه لمشاهدة السحر غير أنه عاف كل شيء وخاصمته عيناه وراحتا تجوسان خلال وجوه الناس عله يعثر على ضالته المجهولة دون جدوى. . . ترك الساحر ومضى مبتعداً، دلف إلى شارع صعد إلى طواره المغطى بسقف تحمله أعمدة ساحقة ذات مهابة، فكأنه يخطو إلى معبد لا تدري لأي إله يتعبد فيه الناس. . . كان اليأس يدب حثيثاً إلى نفسه التي راودته بالعودة إلى السفينة، خطا فوق الطوار خطوات جاءه بعدها صوت رجل مبتور الساق يفترش الأرض فوق خرقة بالية، كان الرجل يضع فوق رأسه عمامة وكان يهتف:

«إيه يا رفيق. . . دعني أقرأ لك كفك!».

ابتسم السندباد معتذراً، ما كاد يمضي حتى اجتذبه صوت امرأة تقف إلى جوار واحد من تلك الأعمدة الشاهقة، كانت امرأة جذابة الوجه وضاءة البسمة أنيقة الملبس آمرة الصوت. . . قالت:

«إن لم تكن تدري، فأنا من يسعى إليها الألوف أقرأ لهم الطالع!».

أحس السندباد وكأن صوت السيدة يشده إليها، كاد يلبي عائداً إليها لولا أنه لمح في تلك اللحظة وجه صاحبته بجوار واحد من تلك الأعمدة. . . اندفع نحوها كاللاهث فإذا هي تتقهقر وتختفي خلف العامود، حتى إذا ما وصل إليها، كانت هناك!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس، أن وجه الفتاة لم يكن ككل ِالوجوه، بل كان وجهاً يحمل جمالاً هو

خليط من الشرق والغرب معا، وكأن الخالق سبحانه وضع في وجهها جمال نساء الأرض جميعاً. . . كانت متوسطة الطول ملفوفة القوام يحيط بها الساري فكأنه يحتضنها في هوى وعشق، في ردائها حشمة، وفي نظراتها المتكسرة حياء غير مصطنع. . . وقف قبالتها وألقى عليها التحية فردت تحيته بمثلها، اضطربت أنفاسه وسارعت دقات قلبه مع سماع صوتها الموسيقى. . . عندما تحدث كان صوته مرتجفاً، قال:

«رأيتك في أول لحظة غادرت فيها الميناء!».

«وأنا تبعتك منذ وقعت عليك عيناي!».

في صوتها رنة أدب وصدق ملأت نفس السندباد بالراحة واليقين معاً، قال:

«لست أدري كيف أشكرك!».

«إنه الفقر يدفعهم إلى الجنون وارتكاب الآثام!».

«لولاك لكنت الآن مفلساً لا أملك فلساً!».

«إنها نقودك وأنت أولى بها وحتى ولو كان الطالب جائعاً!».

غمره الإحساس بالعرفان وضاع منه الكلام. . . راح ينظر إليها فتطلعت إليه بعينين تتوسلان، هتف:

«هل لك حاجة؟!».

«هتف بالحديث، اكتست عيناها بدمع رفيق، ارتجفت شفتاها، تمتمت بكلمات لم تصل إلى أذني السندباد لفرط خفوتها أو لسحر صوتها. . . تلفت السندباد حوله في قلق وقد طال وقوفهما على قارعة الطريق، وقعت عيناه على قارئة المستقبل وكانت واقفة في مكانها لا تزال، قبل أن تفارق عيناه وجهها هتفت به:

«لا تخض في بحر لا تعرف له شاطئاً!».

عاد بعينيه إلى الفتاة فجاءه من الخلف صوت الرجل المبتور الساق:

«الباحث عن الحقيقة كالساعي خلف سراب!».

هم بالحديث فإذا فتاته تغرد بصوت سرى في دمائه:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

قال بصوت أنكره على نفسه:
«أولا تعلمين أن الحذر لا يمنع القدر؟!».

قالت قارئة الطالع:

«يا بني . . . لا تلقي بنفسك إلى التهلكة فتقعد ملوماً محسوراً!».

هم بالرد لكنها أردفت ضاحكة:

«ما فائدة الصياح ومن يسمعك أصم؟!».

قال الرجل المبتور الساق:

«لو أنك أعطيتني خمس روبيات لأنبأتك بما سوف تفعله بك الأيام؟!».

هتفت فتاته مستنكرة:

«راجا!».

قالت قارئة الطالع:

«أنا آخذ منك أربعة!».

قال الرجل:

«سآخذ ثلاثة!».

صاحت الفتاة مختنقة الصوت:

«لا . . . ليس هذا . . . ليس هذا!».

قالت ما قالت واندفعت تعبر الطريق مبتعدة، هم بأن يتبعها فجاءه صوت الرجل مرة وصوت المرأة مرة فكأنهما ذراعان يمسكان بتلابيبه ويمنعانه من الحركة. . . التفت نحو الضفة الأخرى من الطريق لكنه لم يجد فتاته هناك. كانت قد ذابت حيث لا يدري!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس والحزن يغسل صوته:

«ارتضى الإنسان أن يحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها يا ولدي!».

فسأله الفتى:

«وما الأمانة؟!».

قال السندباد والحزن يعتصره:

«إنها الاختيار!».

«وهل اخترت؟!».

ساد الصمت للحظات شخص فيها السندباد إلى الفضاء، وحبس الفتى أنفاسه حتى جاءه صوت السندباد:

«ويا ليتني ما فعلت!».

... وكان الباب موصداً!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس: إن الإنسان في بعض الأحيان تنتابه أحاسيس من الصعب إدراك كنهها، ولقد حاول ابن آدم أن يغوص في نفسه لمعرفة حقيقة نفسه، فما توصل إلى شيء سوى أن يفض عن الحقيقة غلافاً، تاركاً للأجيال التالية أن تكمل المسيرة، ولأن عمر الإنسان في عمر الزمن لحظة، فإنه دائماً ما يدرك، ربما بعد فوات الأوان، أن الحقيقة المجردة بعيدة الغور عسيرة المنال!.

سأله الفتى:

«هل قدر الإنسان ألا يعرف من الحقيقة إلا أطرافاً بعد أطراف؟!».

«تظن أنك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر!».

«هذا قول علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله!».

«ولقد قال من آتاهم الله علماً الكثير... لكن أحداً لا ينتبه!».

كان صوت السندباد حزيناً حزيناً... أراد الفتى أن يخرجه مما استغرق فيه وقد رق له قلبه، فقال في صوت خفيض:

«ألا نصلي العشاء يا مولاي؟!».

ارتسمت على وجه السندباد ابتسامة سرت عدواها إلى الفتى الذي أردف:

«قد يخفف الوقوف بين يدي الله ما ألم بك من أسى!».

زفر السندباد وهو ينهض:

«الحق معك يا ولدي، وإن كانت الصلاة ليست كالصلاة!».

هم الفتى بالسؤال لكن السندباد كان قد يمم وجهه شطر القبلة، ثم أقام الصلاة وصلى بالفتى الفرض ثم أتبعه بالشفع والوتر... وما لبث أن حمد الله وأثنى عليه وطلب منه الرحمة والغفران... ظل الفتى صامتاً وهو ينظر بشغف إلى وجه السندباد الذي بدا، بعد الصلاة، وكأنه أضاء بنور داخلي، طال الوقت قليلاً حتى قال الفتى:

«ألا نكمل حديثنا عن بلاد الهند؟!».

«ابتسم السندباد كمن انتبه من رحلة كانت جد بعيدة، سأل الفتى:

«ترى أين توقفنا؟!».

«عندما فرت الفتاة وتجاذبته أصوات العراف وقارئة الطالع!».

قال السندباد أن صوتا العراف وقارئة الطالع ظلا يتجاذبانه مثل ذراعين أمسكت بتلابيبه، وكل ذراح يجذبه إلى ناحية... وكانت الفتاة قد عبرت الطريق وذابت في درب ضيق يبدو بين الجدران مثل شق، أراد السندباد أن يتبعها ويلحق بها فإذا قدميه ملتصقتان بالأرض لا تريد أن تبرحها، حار في أمره فالتفت نحو العراف الذي قفز فجأة مهرولاً نحوي ملوحاًبسبابته محذراً...

هتف الفتى مقاطعاً السندباد:

«ألم تقل أنه كان مبتور الساق؟!».

«وكان السندباد يخوض بحراً بلا أعماق، مال نحو الفتى قائلاً:

«نعم كان مبتور الساق، ولقد كان يعرض ساقه تلك على الرائح والغادي حتى ترق له القلوب وتنفحه درهماً أو روبية، ولم يكن هناك ظلام يخدع البصر، بل كانت أضواء المصابيح تفترش الطريق بنورها!.

«فكيف إذن...».

هكذا هتف الفتى لكنه أمسك عن الحديث، فأكمل السندباد:

«كيف إذن عادت ساقه... أليس هذا ما تريد أن تسأل عنه؟!».

«نعم جزاك الله عني خيراً!».

مضت لحظات سهمت فيها عينا السندباد للحظات حتى جاء صوته:

«لو أني عرفت الجواب، لما واصلت السعي!!»

* * *

راح السندباد يحكي للفتى ما شاهده في تلك الليلة وما حدث له... قال أنه في الوقت الذي هم فيه بالإنصراف أو كاد، وقفز فيه العراف مهرولاً نحوه، تعالت في الشارع أصوات ضحكات وغناء وصيحات، فلم يملك إلا أن يلتفت نحو ناصية الطريق فرأى مجموعة من البحارة بلغ بهم المرح أقصاه... كانوا يترنحون في سعادة، ويضحكون في مرح، ويتبادلون الحديث في صخب... غير أن ما لفت نظر السندباد وشد انتباهه، أن الرجال كانوا يتجاذبون أطراف الحديث الضاحك بلغات شتى... بدا الأمر للسندباد غريباً حتى كاد أن ينسيه فتاته... كان البحارة يقتربون شيئاً من حيث كان يقف وهو

يصغي إلى أحاديثهم في انتباه، فإذا من جاء من بلاد الإنجليز يتحدث بلغته، ومن جاء من بلاد الفرنسيس يتحدث بلغة أهله، ومن كان عربياً يتحدث بالعربية، والهندي بالأردية، والصيني بالصينية، والإيطالي بالإيطالية والسويدي بالسويدية و. . . و. . . و. . . .

كان خليطاً غريباً يتنوع بتنوع الناس والأجناس، كل منهم يرتدي ملابس أهله ووطنه، تغمرهم السعادة وكأنهم التقوا على شوق بعد طول فراق، كانوا يتبادلون الحديث ويفهمون لغات بعضهم بعضاً، أو كأن اللغات قد انصهرت فإذا هي كمياه تجري في نهر واحد ينبع من مكان سحيق في الزمن. . . تدفقت مياه النهر وتدفقت كلما عمّر الإنسان قطعة أرض أو انتقل من مكان إلى مكان وواجه جديداً لم يلقه من قبل، حتى إذا ما واجهت المياه سداً أو مانعاً، استمرت في تدفقها تاركة عند المانع رافداً يتغذى منها وبها، ويأخذ الرافد طريقه حتى يصبح رافدان وثلاثة و. . . و. . . وإذا الروافد تمتد إلى سطح الدنيا كلها، وكل منها يحمل سمات خاصة وملامح تتفق وتتناسق مع الزمان والمكان والحاجة معاً. . . لكنها جميعاً تفيض بنفس المياه وإن اختلفت مجاريها!.

كان قلب السندباد يخفف مع أفكاره، وكان يلهث وكأنه صعد جبلاً. . . عبره البحارة في صخبهم ومضون إلى حال سبيلهم، التفت السندباد نحو العراف وكان هذا يبتسم، انتبه إلى أن ساقيه كانتا سليمتان فكيف. . . هم بالحديث لكن العراف قال:

«لم لا تلحق بهمّ وتمرح معهم فأنت لا تزال في شرخ الشباب!».

لاحت من السندباد نظرة نحو قارئة الطالع فإذا هي تستدير منصرفة، هم بندائها فإذا هي تبتعد منسلة كي تتبخر عند الناصية. . . عاد إلى العراف متسائلاً، وكان هذا ينظر إليه شفقاً. . . أشار السندباد إلى حيث اختفت قارئة الطالع فقال هذا:

«لقد مدت لك يدها بما تستطيع فلم تصافح اليد الممدودة!».

عاد السندباد مشدوداً يعبر الطريق خلف فتاته بقلبه، هم بالسير فأمسك العراف بذراعه وكانت يده قوية، قال:

«ما قولك فيمن يحرث المياه؟!».

«حصاد الهشيم!».

«وما قولك فيمن يريد إدخال الجمل في سم الخياط؟!».

«قبض الريح!».

هتف العراف:

«فلم تسعى إذن وراء وهم؟!».

أشار السندباد إلى حيث اختفت فتاته هاتفاً:

«لكنها لم تكن وهماً!».

«فلا تلومن إلا نفسك!».

قال العراف هذا، وهو يمضي مبتعداً عن السندباد!.

* * *

راح السندباد يتبع العراف ببصره وهو يمضي مبتعداً فإذا هو صحيح الجسد والساقين معاً، بدا له وكأنه لا يسير فوق الأرض إنما هو يسري مبتعداً، خطا عابراً الطريق خلف الفتاة حتى إذا وصل إلى الضفة الأخرى التفت وراءه فإذا العراف قد اختفى... راح يبحث عن الدرب الذي اختفت فيه فتاته ولم يكن الأمر سهلاً، وجد نفسه أمام درب هنا وزقاق هناك وحمارة لا تشي بما في داخلها، ترك نفسه لساقية فإذا هو يسير إلى درب جانبي بدا له في الضوء الخافت وكأنه ظل لشيء آخر.. كالمنوم خاض السندباد في الدرب فإذا هو ممتد بين الجدران

في التواء يتعرج به يمنة ويسرة، داهمت السندباد رائحة بخور زكية نفذت إلى صدره فأنعشته، كلما سار خطوة وخاض في الدرب ضاعت منذ البداية ولم تبد للطريق نهاية... انتابه إحساس غامض بأنه ينتقل من عالم إلى عالم آخر، كانت معالم الدرب من حوله غريبة، بيوت بلا ملامح وأبواب بلا درج وضوء خافت وإن كانت مصابيح الطريق تتناثر متباعدة... في لحظة تسمرت قدماه في الأرض وقد شملته رجفة لا يدري لها سبباً... لم يكن الدرب خالياً فلقد مر به رجل ومر هو بامرأة وشاهد طفلاً يقف بباب بيت ثم ساد السكون وعم الصمت وكأن الحياة قد اختفت... سمع حركة من خلفه فانتفض وقد داخله الخوف فإذا فتاته تغادر ظل باب وهي تهرول مبتعدة، اندفع نحوها حتى إذا حاذاها نظرت إليه وهي تتلفت حولها في خوف صارخ... قبل أن يفتح فمه بكلمة هتفت هامشة:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

«كأني ولدت كي أبحث عنك!».

«لا يغرنك بريق الذهب!».

«وهل لغير الذهب بريق؟!».

«قد يرتدي الشيطان مسوح ناسك؟!».

«لم تبعتني إذن؟!».

ترددت في الحديث أو همت به ثم تراجعت وبدت وكأنها تتمزق، تصاعد الدمع إلى عينيها فتلألأت مقلتاها في بحرين من سحر خطف قلبه... قالت كالنائحة:

«كيف تسأل من لا يملك أن يجيب؟!».

«كأني رأيتك من قبل!».

«لم تنقب عما لا طائل وراءه؟!».

«كأني عشقك!».

«وهم قد يقودك إلى ما لا تحب!».

«من أنت؟!».

لا يدري السندباد لم قال ما قال وكيف بدر منه ما بدر... كان لسانه ينطق بما لم يفكر فيه أو كأنه ينطق بلسان رجل آخر... وكلما مضت لحظة وكلمة استمر الحوار كان يشعر وكأن كل منهما يقترب حثيثاً من الآخر، أمسك بيديها وهمس كالملتاع:

«من أنت؟!».

همت بالحديث لكنها أطلقت شهقة جحظت بعدها عيناها وهي تنظر نحو المنحنى القريب للدرب، التفت إلى حيث كانت تنظر فرأى شاباً هائل الجرم مفتول العضلات يبدو في الضوء الخافت كأنه عملاق في أسطورة... كان طويل الشعر كثيف اللحية يضع فوق رأسه عمامة ملفوفة على طريقة أهل الهند من السيخ، وكان يرتدي سروالاً فضفاضاً وسترة تنفرج عن صدر عار يؤكد قوة صاحبه... همست بصوت مرتجف وفي صوتها خوف عربيد:

«ألم أطلب منك أن تعود من حيث أتيت؟!».

قبل أن ينطق السندباد كانت قد أطلقت شهقة أخرى وهي تلتفت نحو المنحنى المقابل... هنالك رأى السندباد بدل الرجل الواحد رجلين، وبدل العينان الغاضبتان أربع عيون ترسل نظرات كأنها اللهب، عندما تحدث العملاق الأول تردد صدى صوته ناهراً:

«ألم أمنعك من لقاء الغرباء؟!».

همت بالرد فأردف وهو يوجه حديثه إلى السندباد:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

قبل أن ينتبه السندباد إلى ما يحدث من حوله، أمسكت الفتاة بيده وجذبته إليها في عنف وهي تهتف:

«اتبعني!!».

اندفعت به نحو شق بين جدارين لا يكاد في الضوء الخافت أن يبين، اندفع معها فأطلقت ساقيها للريح وهو يتبعها، تطايرت الجدران من حوله فإذا هو يخرج من شق إلى درب، ومن درب إلى زقاق... من خلفه كانت تأتيه صيحات الرجال وصوت أقدامهم وهم يطاردونهم... في لحظة جذبته نحوها بعنف شديد فكاد أن ينكفىء على وجهه وهو يعبر باباً سرعان ما أغلقته خلفها برفق وأنفاسها تتردد لاهثة مختلطة بصوت أنفاسه المترددة، راح كل منهما ينظر إلى الآخر وصدراها يعلوان ويهبطان في تلاحق كان يخف لحظة بعد أخرى... همست:

«نحن الآن في أمان!».

* * *

هدأت أنفاس السندباد فتنفس الصعداء، نظر إليها فكأنه الآن يراها لأول مرة، رأى في وجهها بهاء يبعث بالرجفة إلى الأوصال، بدت له في وقفتها وكأنها مخلوق نسيجه الأحلام، بدت له مثل لوحة تنبع ألوانها من ذاتها، وفيما عدا تلك البقعة الحمراء فيما بين الحاجبين، كانت كفاها مخضبتان بالحناء... سرت السكينة إلى نفسه فتلفت حوله فإذا هو في قاعة فسيحة ذات جدرات حجرية شاهقة الارتفاع، حجارتها ملساء داكنة اللون قديمة قدم الزمن، فوق الجدران، هنا وهناك، كان ثمة رسوم لم يستطع السندباد أن يتبينها، في أعلا الجدار المطل على الحارة رأى السندباد كرة مستديرة ينفذ منها ضوء الطريق على استحياء، في أركان القاعة الأربعة، علقت مشاعل عادت بالسندباد قروناً في الماضي، مكان النيران من المشاعل كان ثمة مصابيح كهربية شديدة الخفوت وكأنها تساعد الظلام بالظلال، تنبسط الأرض الحجرية عارية

من أي أثـاث شديـدة اللمعان والنـظافة. . . عـاد إليها بعينيـه وكانت شاخصة بعينيها إليه، ألجمته نظراتها فلزم الصمت غير أنها بعد لحظات وضعت يدها فوق يده هامسة وهي تهم بالحركة:

«انتظرني هنا!».

أمسك بيدها وقد داخله خوف غامض، استجابت ليده وقد أطلت من عينيها نظرات متسائلة، مضت لحظات صمت كانت الأسئلة فيها تتزاحم في رأس السندباد وتتسابق إلى لسانه فما عرف أيها يسأل وأيها يقدم أو يؤخر. . . ترك نفسه لنفسه فإذا به يومىء نحو الباب الذي دخلا منه وهو يسأل:

«من هؤلاء الرجال؟!».

«لا تسأل عن أشياء إن تبد لك تسؤك!».

في عناد ردد السؤال مرة أخرى فأطلت من عينيها نظرة حانية. . . عاد بحر الدمع يغرق المقلتين فازداد بريق عينيها ورأسها تتمايل يمنة ويسرة كأنها تتعذب أو كأنها تبحث عن جواب. . . احتدم في صورة غضب غريب لم يعرف له سبباً أو مصدراً غير أنه انصاع لإحساسه فإذا به يمسك كتفيها بيديه ويطبق عليها في عنف متسائلاً في إصرار:

«من هؤلاء الرجال؟!».

ولولت مختنقة الصوت:

«ليتك تعرف شيئاً عن وعورة الطريق الذي تبحث عنه!».

«من هؤلاء الرجال؟!».

كأنها استقرت على أمر بعينه، ثبتت عينيها وجهه وهي تزفر وقد غاض الدمع من عينيها وافترت شفتاها عن ابتسامة كأنها بلسم.

«وكأن الزمن لم يتغير، وكأن الحيـاة لم تنته. . . ولم تبـدأ من جديد!».

هكذا قالت فتوسل السندباد وقد أصبح السؤال عذاباً:

«من هؤلاء الرجال؟!».

«وحوش الميناء!».

هم بالسؤال لكنها أردفت:

«مثلهم كثيرون في كل ميناء!».

«ومم يمنعونك؟!».

«من لقاء الغرباء!».

«لم؟!».

كأنها تداعب طفلاً قالت:

«حتى لا يزاحمهم الآخرون في رزق معلق بين السماء والأرض!».

جاءه الجواب بسيطاً مقنعاً فأحس بالخجل من نفسه... أصابه الارتباك فراح يتساءل: ما الذي قاله ولماذا وكيف وبأي حق... انتبه عندما أمسكت بيده هامسة:

«لم لا تحرر نفسك من الخوف؟!».

«أرتج حتى النخاع فلقد كان يهرب من إحساسه بالخوف وقد أفاق مما كان فيه، ردد البصر فيما بينها وبين المكان الموحش فعاد صوتها يسري في دمائه:

«على من يبغي المعرفة أن يتسلح بشجاعة الحكماء!».

«من أنت؟!».

«ظننت أنك لا بد تعرف!».

«وأنى لي أن أعرف؟!».

همت بالسير ملاطفة وهي تقول:

«ألا تنتظرني للحظات؟!».

«زابيا!».

هكذا نطق السندباد باسمها وما كان يـدري عنه شيئـاً، شهقت مرتدة وقد زحف الشحوب إلى وجهها وهي تحملق فيه بنظرات يمتزج فيها الفرح بالخوف، ارتجفت شفتاها وهي تردد:

«إذن فلقد عرفت اسمي . . . إذن فلقد خطوت خطوة!».

تبدد السندباد وتثلجت أطرافه وخارت قـواه وسرت البـرودة في أوصاله فارتجف، عاد الخوف يعربد في صدره فتقدم منها وعاد يسأل:

«من أنت؟!».

«فتاة تسعى لإطعام سبعة أطفال وأم مريضة!».

«فما حاجتك؟!».

أطلت من عينيهـا نظرة غـاضبة فـأضفى الغضب على جمالهـا جمالاً، حاول أن يبتسم وقال كالمعتذر:

«أعرف أنك لست كالآخرين!».

راحت تلومه:

«ألم أحذرك؟!».

«مم؟!».

«لا يغرنك بريق الذهب!».

«فما الذي أغضبك؟!».

«أنا لا أقبل الصدقات!».

«فماذا تبتغين؟!».

همت بالحديث لكنها تراجعت، أطلت من عينيها نظرة مفعمـة بالقلق والتردد، تبددت نظراتها وضاعت، امتدت يده كي تربت على كفها الدقيق وانساب صوته في حنان أنكره على نفسه:

«يبدو القلق في عينيك كأنه عذاب مقيم!».

«أخشى ألا تفهم مقصدي؟!».

«إن أخطأت الفهم فعليك بتصحيح المسار!».

اندست يدها في حزام كان يحيط بخصرها داخل تموجات الساري ثم خرجت تحمل في يدها خاتماً يبرق ذهبه في الضوء الخافت كثروة، في رأس الخاتم تتربع قطعة من الماس تتماوج فيها ألوان الطين تخطف البصر، مدت يدها إليه بالخاتم وقد تصاعد الدمع إلى عينيها، همست:

«هذا آخر ما نملك!».

«أتريدين أن تبيعيه؟!».

«أمي في حاجة إلى دواء، وأخوتي في حاجة إلى طعام!».

أمسك بيدها الممسكة بالخاتم بين يديه، ضم اليد بما تحمل بين كفيه في حنان، قال:

«فاحفظي خاتمك لوقت تشتد فيه الحاجة إليه!».

برقت عيناها بالغضب وغاض الدمع منهما فإذا النظرات كاللهب.

«ألم أخبرك أني لا أقبل الصدقات؟!».

امتدت يده إلى حافظة نقوده قائلاً:

«وهل تسمين ما أريد فعله صدقة؟!».

«فماذا تسميه أنت؟!».

كان في صوتها حدة لم يعهدها فيه... أحس السندباد بالحيرة، أحس بالاختناق، أحس بالتمزق فيما بين هذا وذاك... كان يشعر وكأنه شيئاً غامضاً يتصاعد من داخله، من أعماقه، من بعد غائر في النفس والزمن، فراح ينتفض محملقاً فيها!.

من تكون هذه الفتاة؟!.

وكيف عرف اسمها وكيف جرى الاسم على لسانه دون وعي تحضير؟! وكيف عرفت هي اسمه وهل كانت صادقة فيما قالت؟!.

ثم...

ثم كيف قال ما قال وكيف فعل ما فعل... ولماذا؟!.

ثمة شيء سحيق في البعد، موغل في الزمن الذي انقضى يجذبه إليه، شيء كالحلم أو الكابوس... فهل هذا هو سحر الهند الذي حدثوه عنه، أم أن هذه الفتاة قد استدرجته إلى حيث لا يدري وحذرته حتى سلبته إرادته؟!.

انتفض السندباد كأنه مقيد بسلاسل لا فكاك منها، انتفض مستجلباً الهواء إلى رئتيه محطماً تلك السلاسل الوهمية، اندفع نحو الباب الذي دخلا منه هاتفاً:

«لم لا نغادر هذا المكان؟!».

«انتظر!».

هكذا هتفت به وقد أمسك بمقبض الباب، أدار المقبض فاستجاب وجاءه صوتها مرة أخرى:

«لم لا تنتظر؟!».

جذب الباب إليه لكنه لم يستجب، حاول وحاول وكلما حاول اشتد غضبه... التفت نحوها وقد استولى عليه الرعب، قال:

«إن الباب موصد!».

وكانت النظرة في عينيها تبعث بالرعب إلى أعتى القلوب!.

ضعف الطالب والمطلوب

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس: إن تلك لحظة من اللحظات التي لا تنسى في العمر مهما طال، لحظة هزا فيها الخوف قلبه غزواً مشفوعاً برعب قاتم، وهو عندما وجد الباب موصداً والتفت نحو الفتاة وجدها تبتسم... كانت ابتسامتها تحمل من معاني السخرية والشفقة ما بعث الرعب في أوصاله... انتبه فجأة إلى أنه لا يعرف أين هو، وما هي هذه القاعة ذات الحيطان الحجرية العالية والمشاعل الكهربية العتيقة... تذكر أحاديث البحارة فوق ظهر السفينة وحكاياتهم في الليالي المقمرة عن بعض الديانات التي يقدم فيها الكهنة دماء البشر قرابين لآلهتهم، فلم لا يكون هو الضحية القادمة لإله من تلك الآلهة... أيقن في لحظة أنه وقع في شرك قادته إليه هذه الفتاة، شمل الجدران بنظرة أدرك بعدها أن لا سبيل إلى النجاة، وأنه مهما صاح أو صرخ فلن يسمعه أحد... اجتاحه الرعب اجتياحاً، فعاد إلى الباب من جديد وعالج المقبض وجذب الباب إليه لكن الباب ظل موصداً، اندفع نحوها وقد اجتاحه الغضب، هتف بها:

«زابيا!».

في هدوء بدا له بارداً كحد سكين باتر جاءه صوتها:

«ماذا بك يا سندباد؟!».

«إن الباب موصد!!».

ابتسمت في إشفاق:

«لا داعي لما يعتريك الآن من خوف أو رعب فأنت لم تقع في شرك وأنا لم أخطط لك مكيدة!».

انتفض مذعوراً فلقد كانت تردد ما يدور في خلده، هم بالحديث فأردفت وقد عاد إلى صوتها حنانـه: «إعلم رعاك الله أني مؤمنـة بالله الواحد القهار، وأني لست من أتباع إله يبغي دماء البشر قرباناً!!».

أحس السندباد أنه يقف أمامها عارياً حتى من ذاته، وأنه محاصر ولا مفر... داخله ضعف لم يعهده في نفسه، تحدث فجاء صوته مثل بكاء طفل:

«لكن الباب موصد!».

«هذا باب لا يفتح إلا لمن يريد اجتيازه حقاً!».

عاد يؤكد في إصرار وقد اعترته رجفة عنيفة:

«لكنه موصـد!».

«لأنك لا تريد الرحيل!».

عاد إلى الباب وقد اجتاحته الدهشـة، أمسك بـالمقبض القاسي وعالجه ثم جذب الباب إليه فلم ينفتح... عاد فجذبه مرة أخرى وثالثة ورابعة دون جدوى، صاح فيها لاهثاً:

«ألا ترين؟!».

تقدمت زابيا منـه وكانت خـطواتها ثـابتة... مـدت يدهـا نحو المقبض فتـراجع إلى الخلف خـطوة، أمسكت بـه وعـالجتـه بهـدوء فاستجاب، جذبت إليها الباب في رفق فانفتح!!.

مادت الأرض بالسندباد وأحس بالخجل وسرت في جسده برودة صحبتها رعشة ارتجفت لها أوصاله فكأنه مريض تجتاحه الحمى...

أخذ يحملق في الباب المفتوح والدرب من بعده وكانت زابيا تقف هناك وهي تنظر إليه في عتاب... تقدم السندباد منها خطوة ثم توقف، التقت عيناه بعينيها فما استطاع أن يواجه نظراتها العاتبة، غض من بصره فجاءه صوتها كالموسيقى الحالمة:

«هذا هو الباب مفتوحاً فلم لا تغادر!».

كان خجله حارقاً بل كان خجلاً كاوياً، طأطأ رأسه وزم شفتيه كمن يمنع نفسه من الكلام... تقدمت منه كالسابحة في الهواء حتى كادت أن تلتصق به، همست في رجاء حنون:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

تبعثرت نظراته كما تبعثرت أفكاره... لزم الصمت فما كان يدري بماذا يجيب، عادت زابيا إلى الحديث وكان صوتها مفعماً بالحنان:

«الطريق وعر وشاق!».

راح ينظر إليها في توسل فما كان يدري ماذا يقول أو يفعل.

«أنت لا تزال صغير السن!».

أرسلت عيناه دهشة لم تخف عليها فلقد كانت بالقطع أصغر منه بسنوات، ابتسمت وكأنها ترد إليه دهشته:

«ليس العمر بما قضى الجسد على الأرض من سنوات!».

توارى بالصمت فما عادت لديه المقدرة على مواجهتها.

«إن كنت لا تجد في نفسك المقدرة على الاستمرار فليس في هذا ما يخجل!».

رفع إليها عينان متوسلتان، وضعت يدها فوق يده في رفق فسرى دفء كفها إليه فكأنها تبثه الحياة من جديد.

«عد يا سندباد من حيث أتيت فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها!!».

أخيراً وجد صوته، قال مثل طفل ارتكب ذنباً وكانت عيناه على الباب المفتوح:

«لا أريد العودة... لا أريد العودة!».

«إذا عزمت فتوكل على الله!».

«توكلت على الله، ومن توكل على الله فهو حسبه!».

قال هذا دون وعي منه وكأنه اتخذ قراراً لا رجعة فيه... خرجت منه الكلمات وكأنه مأمور بما يتفوه به فما هذا الذي يحدث له، وما هذا الذي يحدث من حوله، وما هذا الذي يحدث معه... جاءه الجواب دون أن يفتح فمه بكلمة:

«ليس الطريق إلى اليقين مفروشاً بالورود!».

أراد أن يقول شيئاً فضاع منه لسانه وصوته معاً، وعاد صوتها ينساب إلى وجدانه:

«لأن عمر الإنسان مرهون بما سعى وحصل، فطوبى لهؤلاء الذين يخطون نحو الحقيقة خطوة!!».

مرة أخرى حاول الحديث فما استطاع، فتح فمه وتحرك لسانه لكن صوته تحجر في حلقه... أدرك أن شيئاً لا بد أن يحدث، أدرك في لحظة جاءته كالوحي من حيث لا يدري، أنه إن أراد فعليه أن يريد بالفعل لا بالقول... امتدت يده نحو الباب المفتوح فدفعه دفعة يسيرة فإذا الباب ينصاع في سهولة حتى التأم مع الجدار فكأنه ما كان... تنفس الصعداء وكأن كابوساً كان يجثم فوق صدره، وبتوسل مغموس في دمع حبيس، قال:

«ألا تساعديني على الإدراك؟!».

«لن تدرك إلا إذا أردت!».

«أريد أن أعرف إن كا. . . . .».

قاطعته في لهجة صارمة فانتبه:

«الطرق متعددة بتعدد الخلائق!!».

«وكيف السبيل لمعرفة طريقي؟!».

«أن تأتمر بأمر نفسك وأن تستجلب من القلب إيمانك!».

«أخشى الزلل!!».

«من لا يخطىء لا يعرف طريق الصواب!!».

مد يده نحوها وعاد يتوسل:

«ألا تأخذين بيدي؟!».

«كيف تتوكأ على من يحتاج إلى من يتوكأ عليه؟!».

أسقط في يده، انتابته الحيرة، ما درى وقتها إن كان نائماً أم هو يقظان، حياً أم ميتاً، حقيقة هذا الذي يحدث أم أنه أضغاث أحلام، كان ينظر إليها ولواعج الشوق إلى المجهول تحرق وجدانه، رقت نظراتها ولانت ملامحها وعندما مدت إليه يدها سلمها نفسه. . . سارت به إلى أحد الجدران فأطاع. . . جلست على الأرض وأجلسته إلى جوارها فانصاع في سعادة، انبعثت منها رائحة زكية فكأنه لم يعرف للعطر قبلها معنى، تلألأت عيناها بنظرة فرحة وكأنها تزغرد لمقدم وليف طال غيابه، همست وكأنها تهدهد فيه طفلاً حديث الولادة:

«والآن. . . ماذا تريد أن تعرف؟!».

أسقط في يده وارتبك فلم يكن يعرف ما الذي يسعى إليه أو يبغيه، هو شوق يحرقه ليل نهار نحو مجهول يسعى إليه لأن فيه خلاصه. . . تمتم بكلمات لا معنى لها واعتراه الخجل وكان لا بد له من السؤال فسأل:

«كيف عرفت اسمي؟!».

ابتسمت ابتسامة ملأت محياها الوضاء، هتفت:

«ما زلت تقف على الشاطىء تخشى على قدميك من البلل!».

استمرأ السعادة فعاد يسأل كطفل عنيد:

«كيف عرفت اسمي!».

«سمعت بحاراً يناديك قبل أن تغادر بوابة الميناء!».

كمن كان معلقاً فوق السحاب ثم سقط فوق الأرض اعتدل في جلسته وقد انتبه إلى حقيقة غابت عنه... تذكر ذلك البحار ذو الندبة في وجهه وقد ناداه فور مغادرته السفينة، وكان يضاحكه ويداعبه ويتمنى له غزوات سعيدة في بلاد تركب الأفيال، هتف دهشاً:

«أوكنت هناك؟!».

«قبل أن ترسو السفينة!».

هم بالسؤال فأردفت:

«كنت في انتظارك!!».

خفق قلبه بعنف وتثلجت أطرافه وهو يراها وقد غاضت السعادة من عينيها فكأنها نطقت بما لا يجب عليها أن تبوح به... فاض قلبه بالحنين فسأل:

«وكيف عرفت أنا اسمك؟!».

«إجابة السؤال عند السائل؟!».

«ألا تعرفين؟!».

«لم لا تسأل من يملك الجواب!».

«ألا تشفين غليلي؟!».

«خلق الإنسان عجولاً!».

جحظت عيناه. سألها:

«أوتعرفين القرآن؟!».

«أليس القرآن كتاب الله!».

هم بالحديث فرفعت يدها ووضعت أناملها فوق شفتيه فلزم الصمت.

أرسلت إليه نظراتها مفعمة فتلقاها بنظرات مرسلة وإذا هما الآن يتحدثان بلا كلمات... استغرقه الأمر فما شعر إلا والحديث حديثاً والجدل جدلاً يتنامى إلى ذروة دفعتها إلى أن تنطق مغاضبة:

«طلبت منك أن تنتظرني للحظات فأبيت علي مرادي!».

«لا تتركيني!».

«هل داخلك الخوف من جديد!».

«ليس الخوف من المكان!».

«مم تخاف إذن؟!».

«أن تغيبي عن عيني مرة فلا أراك مرة أخرى!».

سال الحزن من عينيها مدراراً وكأنه كان خلف المقلتين طوال الوقت في الانتظار، وضعت يدها فوق يده ولامس كتفها كتفه وقالت كمن تنوح:

«ألم تقل للعراف أن الحذر لا يمنع القدر؟!».

«هل نفترق؟!».

صرخ الحزن في عينيها وارتجف صوتها وهي تجيب:

«العلم عند علام الغيوب!».

قفز ناهضاً وقد اعتراه غضب هائل وحزن كظيم... هتف متحشرج الصوت ملوحاً بذراعه في احتجاج وتمرد:

«ففيم كان اللقاء إذن؟!».

نهضت إليه وهي ترميه بنظرات تحذير صارمة، كانت الآن شامخة أكثر من أية لحظة مضت، التمعت تلك البقعة الحمراء فوق جبينها فالتمع معها الجبين كله فكأنها الآن أسطورة تجسدت، واجهته في صرامة:

«هل تريد أن تخطو فوق هامة الزمن؟!».

هم بالحديث وقد احتدم غضبه، فأردفت في صوت جامد كالصخر:

«هل تريد أن تمنع القدر؟!».

أحس السندباد بالتعب، كأنه سار مئات الأميال، كما أحس بالخجل وكأنه ارتكب جرماً لا يغتفر، أحس بالإنهاك وكأنه تسلق جبلاً تطاول هامته السحاب... ساد الصمت بينهما وكانت تنظر إليه الآن في صرامة... تحركت في السر فكأنها تسري في الهواء، تمتمت قبل أن تبتعد:

«لن أغيب طويلاً!».

سارت زابيا حتى نهاية القاعة حيث يقوم باب واطىء لفرط صغره غاب عن عيني السندباد فما رآه قبل أن تتجه زابيا إليه، ما إن وصلت إلى الباب حتى خلعت نعليها وانحنت ثم دخلت واختفت.

وأصبح السندباد وحده!!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه في ضوء القمر، وكانت

الكلمات تسيل من بين شفتيه مغموسة في حزن جفت دموعه: **أنه لا يدري** إن كان الفتى سوف يصدق ما حدث له في تلك الليلة أم لا، **قال إنه** ظل في سنوات يبحث عن هذا الذي رآه وسمعه وحدث له، ولم يكنٍ هيناً ولم يكن الطريق إلى اليقين معبداً... جاء عليه حين كان يكذّب فيه ما حدث، وجاء حين نسبه إلى سحر سحرته به الفتاة... ثم جاءته إشارات وبشارات ودلائل أنبأته أن ما حدث لم يكن وهماً ولم يكن حلماً ولم يكن سحراً... قال وقد أفعمت صوته نبرة من رضا مشوب بسعادة خفية أن البحث أضناه وأتعبه، وأن المناضلة بين متطلبات الحياة وسعيه الدائب نحو هذا المجهول، مزقت سنواته بالإثم حيناً وشملتها بالطهر حيناً آخر... قال السندباد أنه ما إن اختفت زابيا في ذلك الباب المنخفض الصغير حتى أحس وكأنه يسقط من علو شاهق إلى أرض كان عليه أن يختبرها... هو لا يدري كم من الوقت مضى قبل أن تعود الفتاة إليه، لكنه يذكر أن الخوف عاوده مرة أخرى ففكر في أن يفتح الباب ويطلق لساقيه العنان وكفى المؤمنين شر القتال... تقدم من الباب ومد يده إلى مقبضه النحاسي يريد أن يعالجه لكن يده توقفت في الطريق بعد أن أحجم... قال السندباد للفتى أنه خاف أن يجد الباب موصداً فيوقن أنه لا يريد أن ينصرف، أو يعرف أنه وقع في شرك قادته إليه الفتاة... مضت به اللحظات وما كان يدري كيف جاء ولم جاء وإلى أين المصير... حتى إذا أطلت زابيا ذات لحظة برأسها من الباب الصغير، أحس وكأن روحه ردت إليه، أشارت له بالتقدم فتقدم منها ملبياً، ما إن وصل إليها حتى قالت في صوت خفيض:

«تعالى!».

هم باجتياز الباب وقد انحنى كي يمر لكنها دفعته عنه، خطا إلى الوراء خطوة وهو ينظر إليها في دهشة فإذا هي تأمره:

«إخلع نعليك!».

خلع نعليه وانحنى، ودلف!.

* * *

كأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر، ومن دنيا عرفها إلى دنيا كان عليه أن يتعرف عليها... كان المكان الذي خطا إليه غريباً، لم يكن غرفة ولم يكن قاعة ولم يكن ممراً... لم يكن المكان الذي خطا إليه ذا شكل من تلك الأشكال التي عرفها ورآها وخبرها، بل كان كل هذه مجتمعة... كان الهواء كثيفاً مثل دثار لفه لفاً وحمله حملاً فلا هو بالسائر ولا هو بالساكن... قادته زابيا فانقاد، حتى إذا كان جدار دفعته فانفتح... اجتازت الجدار فحمله الهواء خلفها، دثرته ريح زكية فكأنه يسير في بستان مليء بالورود... وجد نفسه في قاعة متوسطة الاتساع، يأتيها الضياء من حيث لا يدري، عالية الجدران كانت ساحقة الحيطان، في صدرها بناء صغير أشبه بالمدفأة في قصور الملوك والأمراء والأثرياء في بلاد الفرنجة، فوقها وضعت مبخرة ترسل دخانها المعطر فكأن هواء القاعة أريج هو مزيج من عطر وطيب، في المنتصف كان ثمة فجوة في الحائط تضيؤها شمعة تنبعث نارها من ذاتها... أمام البناء وقف ناسك نحيف فارع الطول يحيط جسده بدثار من قماش شديد البياض، يمتزج بياضه ببياض شعره المسترسل فوق كتفيه كما يسترسل شعر لحيته فوق صدره في انسياب يصل به إلى ما بعد الصدر... رأى على شفتي الرجل ابتسامة من كان في انتظار مولود يخرج إلى الحياة من بطن الغيب... ما إن خطا السندباد خطوته الأولى في المكان حتى أحس بقدميه تحطان فوق الأرض في رفق فكأنه كان يسير فوق لا أرض... قبل أن يرتد إليه وعيه كاملاً التقت عيناه بعيني الرجل فكأنه اجتُذِب اجتذاباً لا سبيل إلى الفكاك منه، أراد التخلص من إحساسه هذا فجاءه صوت الناسك كأنه يصدر من داخله:

«مرحباً بالباحث عن الحقيقة دون أداة!».

كـان صوتـه رفيعاً نحيـلاً كخيط لا يكـاد أن تـراه العين، **قـال السندباد**:

«منحني الله عقلاً وهو أداتي!».

«يعمل ابن آدم عقله في الشر عمله به في الخير!».

«فكيف السبيل إلى الطريق؟!».

«مسالك البشر بعدد البشر، ولكل مجتهد نصيب!».

«جئت بلا دعوة وأمضي دون رغبة فما المطلوب؟!».

«المجيء ميلاد كالذهاب سواء بسواء!».

«زدني علماً!».

«الحياة تسري سريان المياه في نهر تتدفق مياهه بلا عوائق!».

«وأين المصب؟!».

«في المحيط الأعظم... من حيث تنبع!».

«يمضي العمـر في البحث وقـد ينقضي دون بلوغ الغـايـة أو المراد!».

«الزمن وهم كألوان البحيرة!».

أرتج السندباد وارتد إلى الخلف خطوة فالتمعت على شفتي الناسك بسمة كأنها ضوء ينبثق من الوجه كله، تمتم السندباد مشدوهاً:

«أوتعرف أني شاهدت بحيرة الألوان السبعة؟!».

«كان صعود الجبل في جزر الأزورس شاقاً!».

«وكان في المشقة سعادة!».

انبثقت من عيني الرجل نظرة تدعو السندباد إليه، حتى إذا تردد

لطرفه عيد مد ذراعيه نحوه فسرى السندباد إليه كمن يسبح في الهواء، امتدت يد الناسك إلى وجه السندباد فاحتوته، واخترقت نظراته نظراته فسرى الخدر في دمائه كالنعيم، مسحت إبهاما الرجل جبين السندباد مرة ومرة ومرات، حتى إذا تحدث جاء صوته وكأنه صدى يتردد:

«هل تحقق الصعود إلى الجبل بلا دليل؟!».

تذكر السندباد صعوده إلى الجبل في جزر الأزورس حتى دثره السحاب مع فتاته تلك الغريبة، فإذا السحاب يتحقق الآن من حوله وإذا البرودة تسري في أوصاله، تذكر فتاة الأزورس وهي تسير إلى جواره وقد تدثر الجبلٍ بالسحب فكأنه يرتدي غلالة من أحلام، تذكر كيف كان يلهث سائلاً وقد شاهد المدينة من تحته سحيقة البعد:

«هل صعدنا كل هذا؟!».

«لقد أردت الصعود يا سندباد فلا تفكر فيم تجشمت!».

«كيف عرفت اسمي؟!».

«لا بد أنك جائع!».

قبل أن يرد اندفعت إلى دغل قريب واختفت بين الأشجار، تلفت السندباد من حوله فانتابه الخوف عربيداً، بدا له الارتفاع شاهقاً، والصعود، مع يسره، مرهقاً... استشعر سكون المكان فكأنه يكمن في عمق سكون أعظم... راودته نفسه بالعودة من حيث أتى، فإذا ضحكة الفتاة تأتي من قلب الدغل... ثم، إذا بها تهل عليه من وسط الأشجار متسائلة:

«هل داخلك الخوف!».

ما إن رآها السندباد حتى ارتد إليه وعيه، شهق، خطا إلى الخلف، غير مصدق، هتف:

«زابيا!».

* * *

راح جسد السندباد يرتجف ارتجافاً عنيفاً فكأنه سوف يتصدع، انتبه إلى ما اعتراه فإذا هو يقف أمام الناسك وأريج البخور يدثر حواسه، وتلفت حوله بحثاً عن زابيا لكنها لم تكن هناك... تذكر أنه لم يرها منذ اللحظة التي اجتاز فيها الجدار إلى هذه القاعة، هم بسؤال الناسك فإذا بالرجل يقول:

«لذة العاشق في السعي إلى المعشوق!».

جاء صوت السندباد مبدداً:

«إنها هي!».

«فماذا تريد أن تعرف؟!».

«زابيا هي فتاة الأزورس!».

«ضعف الطالب والمطلوب!».

قالها الرجل في ضيق لم يخف على السندباد فهتف:

«فكيف أصل إلى اليقين؟!».

«عجباً لمن يبحث عن شيء هو أقرب إليه منه!».

«هل يطول السعي؟!».

«بقدر ما تعطي تأخذ!».

«للحياة مطلبها وللجسد رغباته!».

«وهذا هو القدر فيما بين ميلاد وميلاد!».

«زدني علماً!».

«عليك بالاختيار!!».

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه، أن كلمات الناسك الأخيرة

جاءته وكأنها أمر بانتهاء اللقاء. . . رفع الرجل دثاره وغطى مكاناً في كتفه كان الدثار قد انزلق عنه، استدار السندباد مغادراً المكان وكأن قوة خفية تدفعه في رفق. . . وجد نفسه أمام باب كبير فامتدت يده إليه واستعدْ لأن يفتحه لكن الباب استجاب دون جهد، خطا إلى الخارج فداهمته ضوضاء الطريق وأبواق المركبات وصياح الباعة وزحام الناس وأضواء الليل في المدينة الساهرة. . . كأنه كان يهبط من عل ويحط على الأرض راح يستعيد ما مر به، تذكر نعليه ونظر إلى قدميه وكان النعلان هناك. . . تذكر زابيا فوجف قلبه واندفع عائداً كي يسأل الناسك عنها، كان الباب مغلقاً فدفعه لكنه استعصى عليه، هم أن يطرقه بقبضة يده عندما شاهد شرطياً يقف على جانب من الطريق وهو يرسل إليه نظرات فاحصة، سقط ذراعه إلى جواره وقد انتابه اليأس. . . تقدم منه الشرطي والشك يتطاير من عينيه، هرب من نظرات الشرطي فأمسك صوته بتلابيبه:

«لا بد أنك احتسيت ما يكفي من خمر هذه الليلة. . . فلم لا تعود إلى سفينتك؟!».

نظر إليه السندباد وهم بالرد لكنه تراجع، لوح له بذراعه ونكس رأسه ومضى يضرب في شوارع المدينة على غير هدى!.

لا تشتري الخبيث بالطيب!

كان الليل قد انتصف عندما لاذ السندباد بالصمت، بينما كان الفتى الجالس أمامه حابساً أنفاسه في انتظار أن يكمل حديثه... بدا له السندباد شاخصاً نحو الفضاء وكأنه امتنع عن الدنيا وحلق بعيداً... ولقد طال صمته حتى خال الفتى أنه نام أو غاب عن الوعي لولا عيناه المفتوحتان الشاخصتان إلى ما بعد الرؤى المحيطة بهما... أدرك الفتى أن السندباد إنما يستغرق في الذكرى ويسترجعها، وأنه في جلسته تلك بجوار الشجرة وتحت السقيفة التي صنعها من عباءته يستجلب الماضي حياً في ذاته... كان وجه السندباد يبدو في ضوء القمر الساجي وكأنه يضيء من داخله، تبرق عيناه ببريق هادىء يشع بالراحة والسلام... أحس الفتى وهو يحملق فيه أنه يكاد يشف عن الواقع إلى ما وراء المحسوس من حوله، لكنه ما لبث أن انتفض وقد انتابه الخوف من تلك الأحاسيس التي كانت تتسلل إليه فلا يملك إلا أن يستجيب، فكأنه يتحلل من ذاته مكوناً ذاتاً بدت له، مع دفئها ورقتها، غريبة عليه... هز رأسه في عنف كمن يطرد عنها أشباحاً، وفتح عينيه على مصراعيها واستجلب آخر ما قصه عليه السندباد فتساءل بينه وبين نفس: كيف اختفت زابيا من تلك القاعة التي التقى فيها بالناسك وكانت هي التي قادته إليها وهي التي دخلت به إلى الرجل؟!... تساءل الفتى إن كان السندباد قد التقى بها بعد ذلك والتقت به أم أن اللقاء عز

عليهما؟!... وإذا كان اللقاء قد تم فكيف كان، وعن أي شيء دار بينهما الحديث؟!...

عند هذا الحد تحرك السندباد معتدلاً في جلسته، وصوب إلى الفتى عينين بدتـا مثل جمرتين مشتعلتين بنار كانت تتوهج في الداخل، سرى الخدر إلى أوصال الفتى فحبس أنفاسه وارتجف، ثم... وكأن السندباد كان يرد على ما دار في خلده، قال:

«أما كيف اختفت زابيا فليس في الأمر سحراً، ذلك أني عندما دلفت إلى تلك القاعة حيث كان الناسك يقف في الانتظار، شد انتباهه ما كان فيها، واجتذبت اهتمامي قامة الرجل وعيناه الوضاءتان ونظراته التي احتـوتني فما أحسست بشيء إلا بـه وبما قـاله... ولا بـد أنها تسللت من الباب في هدوء، وإن كانت قد فعلت فما أظنني كنت شاعراً بها حتى ولو أردت!».

قال السندباد هذا ثم صمت للحظات، وعندما جاء صوته بعـد ذلك بدا الصوت غريباً، وكأنه ينبع من آلة موسيقية تعزف لحناً شديد الحزن:

«كانت قد أدت ما عليها ثم رحلت فليس المقام مقامها!».

قال الفتى:

«غير أني عرفت من حديثك يا سندباد، أن ثمة أشياء تخرج عن طاقة الإنسان قد وقعت!!».

سأله السندباد:

«مثل؟!».

«مثل ذلك السريان في الهواء دون سير كالسير، وذلك الاختفاء في المنعطفات كاختفاء العراف في منعطف الطريق، وتبخر قارئة الطالع في انصرافها المفاجىء بعد اختفاء زابيا!».

قال السندباد وقد لاحت على وجهه ابتسامة:

«اعلم يا بني أن الإنسان يملك من القدرات ما يستطيع أن يحرك به جبلاً بنظره... وأن هناك من الخوارق ما يحدث كل يوم على مدار سطح الأرض دون أن ينتبه إليه البشر أو يعيروه اهتماماً إلا فيما ندر!».

«فلم لا تكون زابيا قد اختفت مثلما اختفى العراف وقارئة الطالع؟!».

لاحت في عيني السندباد نظرة من خيبة أمل، حدق في الفتى طويلاً ثم قال كمن يعين طفلاً على السير بمفرده:

«لأن الأمر قد يكون وهماً، وانشغال الأذهان بالروافد يبعدها عن مجرى النهر المتدفق!».

«فماذا حدث بعد أن غادرت الناسك وخرجت إلى الطريق؟!».

وراح السندباد يكمل.

* * *

قال السندباد أن ذاك الشرطي ما إن رماه بنظرته تلك المهددة المنذرة، حتى انطلق يسعى في شوارع المدينة الساهرة على غير هدى... وإن كانت موانىء الدنيا كلها لا تعرف النوم ليلاً أو نهاراً في انتظار هؤلاء الوافدين في سفن تأتي من جميع أنحاء الأرض، فكذلك كانت بومباي... كان الجو في تلك الليلة دافئاً تنبعث فيه أنسام من هواء مشبع بذلك العطر الهندي المميز... فيما يحيط بالميناء من شوارع أو حواري أو أزقة راحت مجموعات البحارة تترى مجموعة إثر أخرى، يرفعون عقائرهم بالغناء والصياح والضحكات وهم يخرجون من حانة أو يدلفون إلى حانة... كانت الطرقات مزدحمة بالرائحين والغادين والبائعين والجائلين وقد انغمس الكل فيما كانوا فيه انغماساً،

تختلط الأصوات بصدح الموسيقى الهندية بمزاميرها هنا، أو انسياب موسيقى بلاد الروم هناك، يستمع البعض إلى هذه فينتشي، ويصاحب البعض تلك وقد حملتهم إلى بلادهم وأوطانهم وذويهم عبر أجنحة الخيال والشوق معاً. . . كان السندباد يضرب في الطرقات على غير هدى، عندما انتفض في لحظة وقد لمح زابيا تمرق من جواره مهرولة حتى ذابت وسط الناس، اندفع وراءها وقد ركض قلبه بين ضلوعه حتى إذا لحق بها أمسك بذراعها فالتفتت إليه، هوى قلب السندباد في صدره فلقد كانت الفتاة غير الفتاة وإن كان القوام متشابهاً، رمته الفتاة بنظرة نارية وسألته عما يريد ويبغي. . . تراجع إلى الخلف متمتماً بكلمات اعتذار وما درى كيف يعتذر، شمله الخجل فاستدارت الفتاة ماضية في طريقها بينما كان السندباد يجتر في حلقه طعم العلقم. . . ترك قدميه تضربان في شوارع المدينة من جديد، يخف الزحام والضجيج كلما ابتعد الإنسان عن الميناء وغاص في دروب المدينة المترامية، راح السندباد يسير لا يدري إلى أين أو ماذا يريد. . . أحس ذات لحظة بالعجز فتساءل: لم لا يلقي بنفسه في خضم الحياة ويستمتع كما يفعل الآخرون راضياً بما حصل قانعاً من الغنيمة بما نال. . . حاول البحث عن ذلك الطريق الذي التقى فيه بالعراف وقارئة الطالع دون جدوى فكأنه لم يكن، كلت قدماه ووهنت قواه، زحف ضياء الفجر على الدنيا وكان يسعى إلى جوار البحر الممتد إلى ما لا نهاية، رأى المياه ناعسة وقرص الشمس يصعد مطلاً على الدنيا بجلال، جلس على مقعد خشبي وهو يشعر وكأن الحياة تنسحب من جسده رويداً رويداً. . .

عثرت عليه مجموعة من بحارة السفينة صادف أن مروا بالمكان فوجدوه وحيداً بائساً فأبوا إلا أن يصحبوه في عودتهم إلى السفينة. . . أمطروه بالأسئلة فما وجدوا لديه جواباً لسؤال واحد، احتدم الجدل فيما بينهم حول ما أصابه فقال أحدهم إنه سحر الهند وقد مسّه، وقال آخر بل هو الحب أصابه ولا فكاك، واقترب منه ثالث وراح يتشمم فمه لعله أتى

منكراً أو خمراً، وضحك رابع وسأل الجميع من منهم لم يصبه ما أصاب السندباد في زيارته الأولى لبلاد الهند. . . عبروا به بوابة الميناء وصعدوا بـه إلى السفينة ومـا إن ألقوا بـه فـوق الفـراش حتى راح في سبـات عميق!!.

* * *

استيقظ السندباد قبل حلول العصر بقليل، أحس وكأن جسـده يحمل أطناناً من عذابات غامضة، ثقلت رأسه بأفكار كانت تتلاطم في عنف وتتشابك وتتقاطع فما عرف منهـا مخرجـاً وما عـرف لنفسه في زحامها طريقاً. . . عافت نفسه الطعام وكان لا بد له أن يأكل حتى يحفظ للجسد قواه، مضغ لقيمات وابتلعها ثم تحمم وبدل ملابسه وصعد إلى سفح السفينة وكان موعد صلاة المغرب قد حان فما شعر بالوقت وقد مضى بـه. . . تلألأت الأنـوار في كل مكـان وكان ضجيـج الأونـاش والجنازير يختلط بصيحات الرجال العاملين في جد ونشاط. . . خطا عـابراً سـطح السفينة في طـريقه إلى حيث السقـالة التي تـوصل إلى الرصيف، توقفت عيناه عند ذلك البحار العجوز وقد جلس في ركن من السطح فوق كومة حبال وهو يدخن غليونه في استرخـاء. . . اجتذبت نظرات الرجـل عينيه، تـوقف لثوان ثم غيـر مساره وكـانت على وجه العجوز ابتسامة خالها مشحونة بآلاف الكلمات والمعاني. . . عرج إليه وألقى عليه تحية المساء فرد العجوز بأحسن منها ثم أردف:

«كيف وجدت الهند وكنت في شوق إليها؟!».

جلس السندباد إلى جواره وقد حار فيما يقول، ظل العجوز ناظراً إليه منتظراً الرد منه. . . أخيراً وجد السندباد كلمات فقال:

«وجدت فيها ما كنت أحلم برؤياه!».

«فلتصل شكراً لله!».

«غير أني عدت بالأمس صفر اليدين!».

«ربما امتلأت يداك بما لا تراه العين ويدركه القلب!».

زفر السندباد زفرة حارة وقال:

«اختلط علي الأمر!».

«لعلك عثرت على الحلم فاختلط في ذهنك بالواقع!».

هتف السندباد وكأنه يبث العجوز لواعج قلبه:

«لكنها كانت واقعاً متحققاً يا أبتاه!».

«يصنع الإنسان وهمه بخياله ثم يضرب في الأرض بحثاً عنه!».

«لكنها لم تكن وهماً!».

صمت لثوان ثم عاد فأردف:

«نعم لم تكن وهماً، بل كانت واقعاً رأيته بعيني وسمعته بأذني ولمسته بيدي!».

«ثم؟!».

«طاردنا ذئب من ذئاب الميناء فقادتني إلى حيث التقيت بناسك في محراب!».

«هل تحدثت إليه وتحدث إليك؟!».

«قال لي عجباً لمن يبحث عن شيء هو أقرب إليه منه!».

«وهل وعيت ما قال؟!».

«نصحني بالاختيار!».

«إذن فلقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة!».

«لكنها اختفت!».

«الصبر مفتاح الفرج!».

«ستبحر السفينة بعد يوم أو يومين وقد يعز اللقاء فيتبدد الأمل!».

لاحت في عيني العجوز نظرة مفعمة بخيبه الأمل، راح يدخن غليونه وقد ابتعدت عن السندباد عيناه... مال هذا نحوه وتوسل:

«ألا تزودني بما ينير لي الطريق؟!».

التفت العجوز نحوه وجاء صوته حاداً فكأنه يعنفه:

«ألم تجد في جزر الأزورس أن اللون كان وهماً؟!».

«نعم... وجدت اللون هناك وهماً!».

«لم يكن الوهم في الحياة، ولم يكن في انعكاس أشعة الشمس على الأبخرة المتصاعدة من سطح البحيرة!».

«ففيم كان إذن؟!».

«في عينيك... فحذار!».

قال العجوز هذا ثم انصرف إلى حال سبيله!.

* * *

ولقد انقضت الليلة والسندباد في بحث لا يني ولا يكف... طاف بالميناء وحول السفن ووسط الباعة وفي الحوانيت والمشارب والحانات ولكنه لم يعثر لزابيا على أثر... قضى الليل ساهراً فما عرف النوم طريقاً لعينيه، حاول أن ينسى فطارده وجهها وألح عليه إلحاحاً لا فكاك منه، انقضت الليلة وانقضى بعدها يوم آخر... اشتد هزاله ونبتت ذقنه وغارت عيناه وتاهت نظراته... حتى إذا كانت الليلة الأخيرة أعلن الربان أن السفينة سوف تقلع مع أول ضوء في فجر الغد... انتاب السندباد يأس مرير فقرر ألا يغادر السفينة وألا يواصل البحث...

كان قابعاً في ركن من أركانها عندما مر به العجوز يتدلى غليونه من بين شفتيه فتوقف أمامه دهشاً:

«كيف تبقى في السفينة وليلة الوداع في أية ميناء لا تنسى حتى ولو تكررت!».

وجد من السندباد عزوفاً عن الكلام فابتسم في إشفاق وأردف:

«إن مكثت فلا تلومن إلا نفسك!».

همس السندباد في لوعة:

«بحثت عنها في كل مكان فلم أجد لها أثراً!».

«خلق الإنسان عجولاً!».

«نادى الربان بأن الإبحار في فجر الغد!».

«فلم لا تودع أرضاً منحتك جزءاً من أحلامك؟!».

«أخشى مواصلة البحث فلا أجد سوى سراباً!».

«واحسرتاه على من منح شيئاً فطلب شيئاً آخر!».

«إنما أطلب ما تمنيت لا أكثر!».

«ولا تستبدلوا الخبيث بالطيب!».

«قال لي الناسك أن لذة العاشق في السعي إلى المعشوق!».

رماه العجوز بنظرة ساخرة، ثم قال وهو يمضي:

«فلا تتوقف عن السعي إذن!».

انتفض السندباد وقد بلغته الرسالة، سرى في جسده تيار متدفق من نشاط مفاجىء دفعه إلى الاستعداد، ارتدى أفخر ما لديه من ثياب وقد راوده الأمل، غادر السفينة مهرولاً لاهث الأنفاس حتى إذا اجتاز

بوابة الميناء، وقف ذاهلاً وتسمرت قدماه في الأرض. . .

كانت زابيا أمامه!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه الشاخص إليه مبهور الأنفاس، أن تلك لحظات ظن فيها أن قلبه كاد أن ينفجر لفرط سعادته وحيرته. . . كانت زابيا تقف أمامه بلحمها وشحمها، وسط البائعين والعارضين والمتكالبين كانت هناك، ها هي زابيا غير أن شيئاً ما لم يكن هناك، شيء غريب دفعه إلى التردد لثوان خشية اختلاط الأمر عليه، ابتسم لها فابتسمت له، تقدم منها فتقدمت منه وكانت تتأود في مشيتها، همس باسمها وكأنه يصلي، سقط ضوء الطريق في لحظة فوق الوجه الأسمر المشرب بحمرة خفيفة، كان الوجه هو الوجه، والعينان هما العينان وإن فقدتا ذلك النقاء الذي يكشف ما خلفهما واحتلت مكانه نظرة جسده، حتى إذا توقفت أمامه قال:

«أين كنت طوال تلك الأيام!».

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

«أحرقني الشوق وجفاني النوم ولازمت صورتك خيالي فما برحت أبحث حتى كلت قدماي وأصابني الوهن وانتابني اليأس!».

«عجباً لمن يبحث عن شيء هو أقرب إليه منه!».

«سوف تبحر سفينتي مع أول ضوء لفجر الغد!».

«ألا يسعى الإنسان لاهثاً في الدنيا، فلا ينال إلا ما كتب له!».

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!».

«فلم تريد أن تغير ما قد تغير فعلاً؟!».

«نصحني الناسك بالاختيار!».

«فما اخترت؟!».

قبل أن يرد السندباد علت في المكان صيحة غاضبة كان العملاق هو مطلقها:

«ألم أطلب منك أن تكفي عن لقاء الغرباء؟!».

هتفت زابيا وهي تطلق لساقيها العنان:

«اتبعني!!».

وانطلق السندباد يعدو خلفها ومن خلفهما كان العملاق وزبانيته، غير أنها استطاعت الإفلات منهم وهي تغوص في شوارع تصب في طرقات تؤدي إلى حواري تتشابك مع أزقة فما درى السندباد عن وجهته شيئاً وما عرف لنفسه مكاناً... حتى إذا توقفت راحت تلهث وكانت أنفاس السندباد تتقطع، تطلع فيما حوله فوجد نفسه يقف في حديقة صغيرة تتوسط ميداناً بلا ملامح، في ظل شجرة عادت تنظر إليه وتطلب منه أن يعود من حيث أتى... قال السندباد كالمتوسل:

«لم تبق سوى ساعات وتبحر السفينة فمن يدري متى يكون اللقاء!».

عاد الصفاء إلى عينيها في لمحة، وأطلت من العينان نظرة تفصح عن حسرة.

«منحت شيئاً فلم تطلب ما لا تريد!!».

هتف السندباد وقد اكتشف اختفاء البقعة الحمراء فوق الجبهة وفيما بين الحاجبين:

«أين بقعتك الحمراء فوق الجبين!».

«لا زلت تسأل عن أشياء إن تبد لك تسؤك!».

سأل السندباد مراوغاً:

«فكيف حال أمك وأخوتك!».

«لا زالت أمي في حاجة إلى دواء، ولا زال أخـوتي في انتظار العشاء!!».

ما درى السندباد إلا وهو يمد يده في جيبه كي يخرج كل ما كان يملك من مال:

«قد يكفيك هذا المال لأسابيع قادمة!».

نظرت زابيا إلى النقود في يده واجتاح وجهها إشفاق لم تحاول أن تخفيه:

«أنا لا آخذ مالاً بلا مقابل!».

«يكفيني أن أمكث معك ساعة!».

«وهل تبيع نفسك مقابل كنوز الأرض جميعاً؟!».

أرتج على السندباد وما درى ماذا يقول أن يفعل... أخذ يلح مقدماً لها المال:

«أنت في حاجة إلى نقود فتذكري أمك المريضة!».

«وهل تعود إلى سفينتك خالي الوفاض؟!».

«في بضاعتي رأس مال يدور بالربح أينما توجهت!».

ترددت زابيا قليلاً فأردف يشجعها:

«لولا أن موعد الرحيل قد أزف لطلبت منك ما لا يخطر لك على بال!».

كأنها قرأت أفكاره هتفت في ذعر:

«لكل طريق نهاية فلا تغامر بما لا تملك!».

«فماذا عن طريقي يا زابيا!».

«أنت لا تزال في بدايته!».

هم بالحديث فأمسكت بيده وقالت في توسل:

«لا تشتري الخبيث بالطيب!».

«لقد تحقق الحلم وتجسد الخيال!».

بدت زابيا وكأنها تستسلم، قال وهو يدفع بالمال نحوها:

«ألا تمنحيني لحظة من سعادة!».

«على أن تمنحني لحظة مثلها!».

«وكيف كان ذلك؟!».

مدت يدها إلى صدر ردائها وأخرجت ذلك الخاتم الذهبي ذو الرأس الماسية، قدمته إليه فهتف:

«ألم أطلب منك أن تبقيه لوقت تشتد فيه الحاجة!».

«غير أني لا آخذ مالاً بلا مقابل!».

هم السندباد بالحديث فانطلقت من عينيها نظرة تأمره بالصمت فصمت، مدت يدها إلى يده ووضعت الخاتم في إصبعه وقالت:

«فلا تخلعه حتى تجد الجواب!».

قبل أن ينبس بكلمة، تناولت منه المال وانطلقت في ظلام الحديثة حتى اختفت.

* * *

رغم الشوق ووجيب القلب والحنين إلى الوجه ونظرة العين وطيب الرائحة... عاد السندباد إلى السفينة مستسلماً لما قدر له، راح

يفكر فيما كان بينه وبين زابيا فاختلط في ذهنه بما كان بينه وبين الناسك، أبى ذهنه المكدور أن يعمل فترك الأمر للحظات يصفو فيها العقل ويسترد قوته على التفكير. . . لم ينظر إلى الخاتم في إصبعه فلقد كان يعرفه منذ أن وقعت عليه عيناه أول مرة في أول لقاء له بزابيا. . . خبير هو بالذهب تكفيه نظرة كيف يعرف قيمة ما أمامه من الأصفر الرنان، وهو خبير بالجوهر أنبأته الأشعة المنعكسة على قطعة الماس بقيمتها. . . كان يعلم أن الخاتم الذهبي برأسه الماسية يقدر ثمنه بكل ما أعطاها من مال وربما أكثر. . . رآه البحارة وهو يقف على سطح السفينة وقت الإبحار وكان شاخصاً نحو الرصيف كمن يرجو رؤية شخص بعينه لكن أمله لم يتحقق. . . لحظ أحدهم لمعان الخاتم في يده فاتسعت عيناه دهشة وهتف:

«لقد اشتريت إذن من جواهر الهند ما يذكرك بها!».

مد السندباد يده بالخاتم إلى الرجل دون أن يخلعه، قلب الرجل الخاتم في الإصبع وأبدى إعجابه بالمعدن والجوهر معاً، وسرعان ما سرى الخبر في السفينة وعرف الجميع أن السندباد اشترى من بلاد الهند جوهرة نادرة. . . غادرت السفينة ميناء بومباي واستقبلت البحر الواسع الرحيب، أحس السندباد بالخدر يسري إلى أوصاله وكانت الشمس قد تسلقت الأفق في رحلتها الأبدية، أوى السندباد إلى فراشه واستغرق في النوم، اشتدت الحرارة والتهبت الدنيا بشواظ شمس توسطت كبد السماء. . . سال العرق من جسد السندباد فاستيقظ وكان الفراش مبتلاً وكأنه تحمم نائماً. . . صعد إلى سطح السفينة طلباً لنسمة هواء ترطب القيظ من حوله، كان الرجال متناثرين هنا وهناك وقد أخذت السفينة مسارها، وقف إلى جوار السياج وألقى ببصره إلى الأفق الممتد فتذكر زابيا. . . رفع إصبعه بالخاتم يريد أن يراه في ضوء النهار، ما إن وقعت عيناه عليه حتى خفق قلبه في عنف حتى خال أنه سينفجر. . . ترددت أنفاسه لاهثة وهو يرقب ذلك اللون الأخضر وقد لوث الأصبع من حول

الخاتم... أدرك الحقيقة في لحظة فخفقت أنفاسه بالحسرة والحيرة... أنبأه اللون الأخضر أن الذهب لم يكن ذهباً، وإنما هو نحاس طلي بطبقة رقيقة من ذهب لم تصمد لقطرات من العرق فتأكسد النحاس ونفث على الأصبع إكسيده... وقعت عيناه على رأس الخاتم ولم يكن ماساً بل قطعة من زجاج لا يصل ثمنها إلى ثمن حفنة من تراب... ارتد عائداً إلى الداخل فطالعه وجه البحار العجوز بغليونه وكان يبتسم... هم بالهرب من نظرات الرجل فإذا به يقول:

«لقد أنذرتك الفتاة!».

تسمرت قدما السندباد في الأرض تمزقه الحيرة... أردف العجوز:

«لقد حذرتك من شراء الخبيث بالطيب!».

وتذكر السندباد آخر ما قالته له زابيا وقد وضعت الخاتم في أصبعه:

«لا تخلعه حتى تجد الجواب!!».

اللصوص في بلاد القانون!

ما إن توقف السندباد عن الحديث، حتى فوجىء بالفتى لا يزال في جلسته شاخصاً إليه منتظراً... دامت لحظات صمت قال بعدها:

«لقد انتصف الليل منذ قليل، أما آن لك أن تعود إلى بيتك وأهلك؟!».

انتفض الفتى عند سماعه لصوت السندباد كمن يصحو من غفلة أو غفوة، نظر إلى السندباد وفي عينيه بدل السؤال ألف سؤال، هم بالحديث فقال السندباد في حنان:

«لم لا تدع السؤال حتى تعمل الفكر فيما سمعت؟!».

قال الفتى محتجاً غامزاً:

«وهل يصعد المرء جبلاً بلا دليل؟!».

أدرك السندباد ما رمى إليه الفتى فقال متسامحاً:

«عندما بدأت الصعود كنت في مثل عمرك حقاً، لكن دليلي كان يسير إلى جواري، ولم يحملني في الطريق حملاً يهوّن علي مشقة الصعود!».

كان قول السندباد فاصلاً، هم الفتى بالحديث لكن نظرة السندباد إليه ردته إلى صمته، نهض مستسلماً، حيا السندباد باقتضاب من

استغرق في التفكير، ومضى إلى حال سبيله!.

اختفى في الظلام الذي تسربلت به الدنيا وكان القمر قد مال وشحب نوره فامتدت ظلال الأشياء كالأشباح فوق الأرض... ولقد كان السندباد في تلك اللحظات بالذات، في أشد الحاجة إلى الانفراد بنفسه والاستغراق في التفكير... كان، وقد انتهى من حكاية زابيا الهندية، يشعر أن ثمة ما حدث في بلاد الهند لم يفهمه بعد ولم تصل إليه مداركه، ارتكن إلى جذع الشجرة واستعاد لحظات من الحياة ولت، فما لبثت الذكريات أن استجابت وتدفقت عليه مثل شلال لا ينقطع، تمنى لو عاد الزمن من جديد، ابتسم في سخرية لخاطره هذا وتساءل بينه وبين نفسه: لو أن الزمان عاد من جديد، فهل كان السعي يأخذ مساراً غير الذي أخذ؟!».

أحس السندباد بروحه تشف وجسده يخف فكأنه يجلس فوق خشية من هواء، ويستند إلى وسادة من ماء، تذكر سؤال الفتى عن العراف الساري من مكان إلى مكان، فتذكر قارئة الطالع... تساءل: أما كان الأجدى أن يخفف عن الفتى بعضاً من ذكرياته، أما كان الأجدى أن يبدأ من حيث المغامرات وإثارة العواطف ودغدغة الحواس؟!... وإذا كان البحر عالم قائم بذاته يحوي ما يحوي من غث وسمين، وإذا كانت الدنيا هي الدنيا، والمعرفة تعلو وتهبط مع رغبة الإنسان فيها ورفضه لها... أما كان الأجدى أن يأخذ بيد الفتى أخذاً ليناً هيناً رفيقاً حتى لا يوقعه في الحيرة ويكبله بما لا قبل له به؟!.

«وهل وصلت أنت إلى سيء يا سندباد؟!».

ارتجف السندباد واقشعر بدنه وتلفت حوله فما رأى أحداً، جاءه الصوت من حيث لا يدري فكأنه جاء من أمام ومن خلف وعن يمين وعن يسار... لم يكن الصوت لرجل أو لامرأة، كان صوتاً سارياً كأنه ينبع من ذاته أو أبدية سرمدية، ظن السندباد بنفسه الظنون فبسمل

وحوقل وذكر اسم الله ثم هم بأن يفترش الأرض، متمنياً أن تأخذه غفوة وتحمله حملاً رفيقاً حتى موعد صلاة الفجر. . . غير أنه ما كاد يفعل حتى عاد الصوت يسأل:

«لم تهرب من الجواب يا سندباد؟!».

انتفض السندباد عائداً إلى جلسته متلفتاً حوله وقد لفه الخوف برداء غليظ. . . وإذا به يرى كما يرى النائم سحابة تسعى إليه من وسط الكروم البعيدة وتقترب، وجف قليلاً لكنه أدرك أنه بلا حول ولا طول فأسلم أمره إلى الله وكانت السحابة تقترب منه وتدنو، حتى إذا أصبحت قاب قوسين أو أدنى، راحت تدور حول نفسها في رفق وتتشكل، فإذا الهيئة هيئة إنسان، وإذا الوجه لناسك المعبد حيث أخذته زابيا. . . وإذا الصوت يأتيه لائماً:

«هل وصلت إلى شيء يا سندباد؟!».

«لو أني فعلت لما كنت هنا الآن؟!».

«فلم تريد أن تعطي للفتى ما لست تملكه؟!».

«خشيت عليه أن يضل الطريق وقد تشعبت في الحديث المسالك؟!».

«وهل كان حديثك اختياراً؟!».

«أعلم أنك نصحتني بالاختيار!».

«وهل أخذت بالنصيحة؟!».

«بقدر إدراكي أخذت بها فما عرفت إن كان ما أفعله هو جبر أم اختيار؟!».

«فلم تعطل نعمة الله عليك؟!».

«عندما عز عليّ الإدراك تركت نفسي لأمواج الغيب ورياح القدر!!».

لو أن ربان سفينة فعل ما فعلت، لما كان لسفينته شاطىء ترسو عليه!».

«فبم تنصح؟!».

«لقد نصحت بالأمس فانظر ماذا فعلت بما نُصحت به!».

هم السندباد بالنطق عندما دارت السحابة حول نفسها وتشكلت سراباً ثم راحت تبتعد، عاد السكون يخيم على الكون من حول السندباد فهتف ملتاعاً:

«أكلما اشتقت إلى من يأخذ بيدي اهتصرتني موجات الحيرة؟!».

«فلا تبذل النصح إلا وأنت على يقين!».

هكذا جاءه الصوت من حيث كانت السحابة تبتعد... وتردد صدى الموت متباعداً:

«........ إلا وأنت على يقين!».

«...... وأنت على يقين!!».

«... على يقين!!!».

وكما ذابت السحابة عند حدود الكروم، ذاب الصوت وابتلعه الصمت وانطمس الصدى فجثم على صدر الدنيا همود فكأنها كفت عن التنفس... في استسلام ألقى السندباد بظهره إلى جذع الشجرة، وتحدرت من عينيه دمعتان تخللتا شعر ذقنه، فراح يدعو رافعاً كفيه إلى السماء في ضراعة المستجدي:

«إلى من ألجأ وأنت ملجأي وملاذي... خذ بيدي فما بقي من العمر مثلما انصرم منه!!».

عندها... تسلل الخدر إلى جسد السندباد، فإذا جفونه تسقط، وإذا هو يغفو في غيبوبة فكأنه ما عاش أبداً!!.

عندما استيقظ السندباد كانت الشمس قد أشـرقت وألقت على الدنيا ضياءها الدافىء، تمطي السندباد وتثاءب ثم انتبه إلى أن صلاة الصبح قد فاتته فنهض مهرولاً إلى حيث الغدير، اغتسل وتوضأ ويمم شطر القبلة وأدى الفريضة طالباً من الله المغفرة. . . امتـدت يده إلى ثمرة من ثمار الشجرة أراد أن يتبلغ بها. فتذكر ما حدث له بالأمس بعد انصراف الفتى عنه فما عرف إن كان حلماً هذا الذي حدث أم إنه واقع رآه وعاشه. . . أعمـل الفكر قليـلاً وهم بالنهـوض إلى حيث أشجار الكروم القريبة يريد البحث بين شجيراتها عن الناسك الذي أتاه لكنه تراجع وقد داخلته السخرية من نفسه. . . أعمل الفكر فيما كـان فما استطاع أن يفرق بين وهم وحقيقة. . . حاول أن يشغل نفسه عن نفسه فراح يبحث في مكنون حياته عن ميناء يخفف ما حدث فيها بعضاً من حيرة الفتى وتنقله إلى ما يبغي له عبر حكايات تأخذه أخذاً رفيقاً. . . انقضى اليوم فما وقع اختيار على شيء وما رسا على بر، انتقل بالذكرى عبر العمل الحافل بما كان فكأنه يتنقل بين عوالم شديدة الاختـلاف شديدة التقارب، مضت الساعات وأدى ما عليه من فروض لكن نفسه عانت الطعام فما ذاق من ثمر الشجرة شيئاً، وما زاره الجوع أو خطر له ببال. . . كانت حيرته في الاختيار تختلط بحديث الناسك. كان يدرك لحظة بعد أخرى رنة اللوم فيما قال، وكان يتساءل إن كان قد أخطأ. وكيف أخـطأ، ومتى تنكب الطريق، وفي أي مـوقع ولأي سبب. . . تزاحمت الأسئلة في رأسه فما عرف لسؤال منها جواب. . . حتى إذا حانت صلاة المغرب نهض إلى الغدير فتوضأ وأدى الفرض ومن بعده ركعتي السنة، حتى إذا سمع دبيب قدمي الفتى أتيا من بعيد، أدرك أنه في حاجة إلى التزود بما يعينه على الجلوس والحركـة والحديث. . . سقطت ثمرة في حجره فكأنها أمر صدر إليه بأن يأكل، فانصاع للأمر دون تردد. . . مسح بها كم جلبابه وما إن استطعم مذاقها حتى وجد فيها شفاء لنفسه فكأنها الشهد يقطر في فمه، رُدت إليه الروح وتنفس ملء

صدره. . . جاء الفتى وألقى عليه بالتحية فرد السندباد بأحسن منها، نظر إليه فإذا وجهه شاحب وعيناه غائرتان ونظراته تائهة. . . سأله:

«كيف كان يومك يا بني؟!».

قال الفتى وفي صوته رنة من عذاب:

«ما عرفت للنوم طعماً منذ تركتك بالأمس!».

«لعل المانع كان خيراً!».

كأنه لم يسمعه أردف الفتى:

«وما عرفت للراحة سبيلاً!».

أدرك السندباد ما ألم بالفتى فأراد أن يلهيه عنه فسأله:

«هل بعت واشتريت؟!».

«نعم يا سيدي. . . بعت واشتريت وأوفيت أهل بيتي حاجتهم وأعطيت لكل ذي حق حقه!!».

«فاحمد الله أن يوماً قد انقضى وليس في عنقك دين لأحد!».

«ولكن ذهني كان غائباً طوال اليوم!».

«لعله غاب فيما ينفع ويفيد!».

هتف الفتى شاكياً:

«كان غائباً بك ومعك!».

لزم السندباد الصمت لثوان، لاحت على وجهها ابتسامة مغموسة في الحزن، لكنه قال أخيراً:

«وهل بذلت لك وعداً بطريق مفروش بالورود؟!».

في احتجاج وتوسل سأل الفتى:

«هل كانت رحلاتك كلها مغموسة في التساؤل والبحث؟!».

«فلا تسأل إذن ولا تحاول أن تبحث!».

«في السفر الطويل يا مولاي، هناك محطات للراحة والاغتسال!».

ضحك السندباد وهو يسأل:

«فهل سمعت عن الكونترابندا؟!».

«ماذا؟!».

«الكونترابندا!».

«ومن يكون هذا الكونترابندا عافاك الله؟!».

«إنهم لصوص الميناء في بلاد الرومان!».

صمت الفتى منتظراً، وراح السندباد يحكي!.

* * *

ما أن يممت السفينة شطر بلاد الرومان حتى داخل السندباد إحساس غامر بالأمان... ذلك أن تلك البلاد قد اشتهرت، فيما اشتهرت به في تاريخها العريق، بأن أهلها هم واضعو القانون الذي نبعت منه قوانين شعوب الأرض جميعاً... وهكذا راح يستعد للقاء هذا الشعب ذو التاريخ الغني بالحكايات والأساطير والحروب والبطولة والانتصار والانكسار جميعاً... ولقد تغيرت بلاد الرومان كما تغير العالم عاماً بعد عام، لكن الجميع ظلوا يحتفظون لهذه البلاد، فوق آثارها العظيمة وتاريخها المزدحم، أن فضلها على البشرية، أولاً، كان في وضع القانون الأب!.

قاطعه الفتى وقد بدا قلقاً بعض الشيء:

«لقد علمت عافاك الله يا سندباد، أن الموانىء في بلاد الرومان كثيرة!».

قال السندباد إنها لكذلك بالفعل، فشواطىء تلك البلاد بعد أن توحدت دويلاتها في مطلع هذا العصر، يمتد لآلاف الأميال شرقاً وغرباً. . . سأله الفتى:

«فإلى أية ميناء توجهت سفينتك؟!».

«إلى ميناء يقع إلى الجنوب قليلاً من الشاطىء الغربي لتلك البلاد التي يسميها الناس الآن «إيطاليا». . . ميناء اسمه نابولي!».

هم الفتى بالسؤال لولا تلك النظرة التي لاحت في عيني السندباد فألزمته الصمت. . . بدا وجه السندباد في ضوء النجوم قبل بزوغ القمر وكأنه يضيء من ذاته، سرى صوته بعد ذلك سرياناً عذباً فكأنه ينشد أو يغني، قال إن تلك المدينة تحمل من طابع تلك البلاد الكثير. . . بالقرب منها وعلى مسافة لا تزيد على العشرين ميلاً يقع بركان فيزوف الشهير الذي ثار مرة في التاريخ البعيد منذ ألفي عام وبعد ميلاد السيد المسيح بتسع وسبعين عاماً، فسالت حممه كالفيضان وراحت تزحف وتدمر وتحرق حتى طوت مدينة بكاملها اسمها «بومبي». . . كانت هذه المدينة قد اشتهرت بفسق أهلها وفجورهم فكأنهم غلبوا قوم عاد وثمود وقوم لوط معاً بما فعلوه وما ارتكبوه من معاصي وآثام، لم يكن يعنيهم في الحياة شيئاً سوى اغتراف الملذات وارتكاب الموبقات، حتى إذا طوتهم حمم البركان شاء العلي القدير أن يجعل من المدينة آية للناس لعلهم يتعظون. . . وعندما هدأ البركان وخمد، وانطفأت ناره وبردت، كانت المعجزة التي بقيت، أن الحمم تجمدت فوق الأشياء والناس صانعة من حولهم طبقة من معدن كان مصهوراً. . . فإذا الرجل الجالس يعاقر الشراب قد تحول إلى تمثال تحجر من حوله المعدن وكأسه في يده، وإذا المرأة وقد كانت تضاجع عشيقها تبدو، حتى شعرها، مكسوة

بطبقة من تلك الحمم. . . فكيف لم تحترق الأجساد وتذوب، وكيف بقيت للناس عبرة لما كان. . . فسبحان الحي الذي لا يموت!.

هتف الفتى دهشاً:

«أوشاهـدت هذا بعين رأسك يا سندباد؟!».

قال السندباد أنه شاهده وجاس خلال المدينة التي كانت قائمة كواحدة من أعظم مدن الدنيا في ذلك الزمان البعيد، قال أنه سار في شوارعها ودخل بيوتها وخطا فوق أحجارهـا وشاهـد متحفها وغـادرها ورأسه تدور. . . قال إنه كان يجلس على سطح السفينة تملؤه الرغبة في رؤية تلك البلاد والتعرف على أهلها ومعالمها. . . كان، وهو جالس فوق سطح السفينة، قد استغرق فيما عرفه عنها وما سمعه وما قرأه وما حصل من معرفة ومعلومات، قال لنفسه أن بلاداً تحدث فيها مثل هذه المعجزة لا بد وأن أهلها قد اتعظوا واستقاموا. . . وتذكـر في جلسته تلك، والسفينـة تقترب من الميناء وملامـح الأرض تبين لحـظة بعـد أخرى، تلك القصص الوحشية التي حفظها التاريخ لحكام بلاد الرومان الوثنيون في معاملتهم لأتباع السيد المسيح عليه السلام، وكيف كانوا يعذبونهم حتى يصبأوا فما صبئوا وما تخلوا عن إيمـانهم بالله الـواحد القهـار، كيف كانـوا يقيـدونهم بـالأغـلال ويلقـون بهم في سـاحـات المصارعة كي يصارعوا أسوداً جائعة حرمت من الطعام أياماً حتى إذا ما أطلقت وجدت المؤمن أمامهـا فريسـة تشبع جـوعها وتسكت صـراخ معـداتها. . . لكن الإيمـان بالـرغم من كل شيء انتصـر، وساد دين المسيـح عيس بن مـريم، وتـطلع النـاس إلى شـرع الله يحكم بينهم بالعدل، لكن التـاريخ ـ وكم في التـاريخ من عبـر ـ يحفظ لنا قصص رجال دين حادوا عما رسمه الله لهم، وفسروا ما أنزل على عيسى على هـواهم، فبغوا وتجبـروا وفسقوا في الأرض فكـان نصيبهم من الناس الثورة، ومن الله اللعنة وسوء الذكر بطول السنين. . . لكنه، وبالرغم

مما مر بتلك البلاد من أحداث جسام، ظل القانون الموضوع منذ آلاف السنين قائماً، يبحث عمن يطبقه، فيكفيه أنه القانون الأب الذي اغترفت منه كل أمم الدنيا، كما تصنع كل أمة لشعبها قانونها!.

عبرت السفينة مدخل الميناء وقد تحلق من حولها كالعادة تلك القوارب والزوارق التي تلازم دخول السفن في كل موانىء الدنيا... أطل الركاب على بائعي التحف، ساوموا وصاحوا وتضاحكوا... وزعق البحارة على أصدقاء لهم فيها والزوارق تتطاير من حول السفينة مثل حمائم تتراقص في مرح... حتى إذا رست السفينة إلى جوار الرصيف، وألقيت الحبال كي تقيدها إلى جداره، وأطلقت الجنازير من عقالها كي تهوى بالهلب إلى القاع... وما كاد الرجال يدلون بسلم السفينة معبراً لمن يريد أن يصعد أو يهبط، حتى صعد عليه شرطي طويل القامة أنيق الملبس هائل الجثة غاضب الملامح... عند قمة السلم وقف الشرطي في دركه كي يمنع من ليس له عمل من الصعود، وينظم المغادرة لمن يريد.

كان كل شيء يوحي بالثقة والفرحة وكأن الدنيا تسير الهوينا في طريق معبد... وإذا بالصمت يهبط على الكون فجأة ويسود السكون، وإذا بالرجال فوق سطح السفينة يتسمرون في أماكنهم وهم يحملقون في الرصيف وقد بدا القلق صارخاً في عيونهم، وإذا العاملين فوق الرصيف من أهل البلاد يتوقفون عن العمل ويلزم كل منهم مكانه لا يبرحه، لا يعمل ولا يجرؤ حتى على الحركة، وكانت عيونهم منشدة إلى حيث انجذبت عيون البحارة.

دهش السندباد فراح يحملق حيث كانوا يحملقون فما رأى شيئاً وما فهم شيئاً، كان الرصيف مزدحماً بصناديق البضائع وبالات ما هو جاهز منها للشحن فوق السفن، تلفت حوله بحثاً عمن يساعده على فهم ما كان يدور... لمح البحار العجوز بغطاء رأسه ولحيته الكثة وغليونه

المشتعل يرسل دخانه وقد أمسكت به أسنانه، وكان ينظر إليه باسماً وهو جالس فوق لفافات الحبال التي تعود الجلوس فوقها... هم بالذهاب إليه غير أن العجوز بادره بالنهوض، سار إلى حيث كان يقف، أمسك بالغليون وقد استند إلى سياج السفينة وأشار هو إلى بقعة بين أكداس الصناديق والبالات، دقق السندباد النظر حيث أشار فإذا أربعة رجال يتقدمهم خامس والجميع يرتدون معاطف ويضعون فوق رؤوسهم قبعات قد تدلت على حوافها كي تغطي الجبهة فلا تبدو سوى عيون تطلق نظرات تشي بشر مستطير، تقدم كبيرهم بخطوات واثقة من سلم السفينة وكان الرجال يضعون أيديهم في جيوب معاطفهم وكأن كل منهم يقبض داخل الجيب على سلاح حامل للموت لمن يعترض الطريق، التفت السندباد نحو العجوز وهم بالسؤال، فإذا بالرجل يقول:

«الكونترابندا!!».

«من هم الكونترابندا؟!».

هكذ سأل السندباد فجاءه رد العجوز:

«اعلم يا سندباد أن في كل ميناء لصوصها الذين يعرفون بحارة السفن جميعاً كما يعرفهم البحارة في كل ميناء... غير أن أخطر هؤلاء جميعاً، وأذكاهم، وأشدهم فتكاً، هم الكونترابندا!».

«ماذا يفعلون، ماذا يريدون؟!».

لم يرد العجوز لكنه أومأ إلى حيث وصل الرجال إلى سلم السفينة العابر فيما بين الأرض والسطح، وما أن وضع كبيرهم قدمه على الدرجة الأولى حتى تحلق الرجال الأربعة من حول السلم صانعين من أجسادهم سياجاً يمنع الصاعدين أو الراغبين في مغادرة السفينة... في تؤدة وثقة كان كبيرهم يصعد السلم حتى وصل إلى قمته حيث كان الشرطي العظيم الجثة يقف وقد شحب وجهه وارتعدت فرائصه... قبالة

الشرطي وقف الرجل الذي ما لبث أن تساءل في سخرية:

«ألا تفسح لي الطريق لوتشياتو؟!».

استولت الدهشة على السندباد وهو يرى الشرطي يتقهقر مبتعداً عن دركه وموقع عمله... خطا الرجل خطوة فوق سطح السفينة وقد انتفخت أوداجه، فإذا مساعد الربان يبرز من باب جانبي كي يقف في طريق الرجل الذي ما إن واجهه المساعد حتى هتف شاكياً:

«لم تقف في طريقي بحق الشيطان أيها الربان؟!».

قال مساعد الربان في غلظة واضحة:

«عد من حيث أتيت أيها السيد!».

أطلق الرجل ضحكة ساخرة جلجلت في المكان الغارق في الصمت والترقب، استدار نحو رجاله الأربعة فوق الرصيف وصاح:

«هل سمعتم شيئاً مثل هذا يا أولاد؟!».

صاح أحدهم متسائلاً:

«ماذا أيها الرئيس؟!».

«إن هذا الربان الشاب يطلب مني العودة من حيث أتيت!».

هتف ثانيهم متصنعاً الدهشة:

«ماذا؟!».

ثم التفت نحو زملائه، وإذا الجميع يضحكون وكأنهم استمعوا إلى طرفة!.

كان الموقف غريباً كل الغرابة، اندفع السندباد في رعونة من لا يعرف عاقبة ما سيفعل نحو الشرطي الواقف غير بعيد وقد شحب وجهه:

«سيدي الشرطي!».

التفت إليه الرجل الضخم الجثة دون رد، عاد السندباد يصيح:

«ألا تصنع شيئاً لنجدة الربان؟!».

قال الشرطي في صوت متوسل:

«لم تتدخل فيما لا يعنيك؟!».

«قد لا يعنيني هذا الأمر حقاً، لكنه يعنيك أنت!».

مط الشرطي شفته السفلى وهز كتفيه في لامبالاة وهو يتمتم:

«إن لي خمسة أولاد أريد أن أطعمهم!».

علا صوت الرجل محدثاً مساعد الربان:

«ألا تدعوني في سفينتك إلى كأس أو فنجان قهوة؟!».

لم يرد مساعد الربان، إنما التفت إلى مؤخرة السفينة حيث كانت مجموعة من البحارة يزحفون نحوهما وفي يد كل منهم قضيب من حديد أو خشب... التفت الرجل نحو البحارة الذين كانوا يتقدمون منه وعيونهم ترسل نظرات تنبىء بالشر، هم بالصياح عندما علت على القرب منه صرخة، ثم صوت صفارة، وانفجار طلقة...

وكان ما يحدث على السفينة المجاورة، شيء أغرب من الخيال.

شرّ البليّة!

أحس السندباد بالعطش، فاستأذن الفتى الذي كان يستمع إليه الآن مبهور الأنفاس يكاد لا يصدق ما يسمع... نهض إلى حيث الغدير القريب، واغترف منه وشرب حتى ارتوى فحمد الله وأثنى عليه، ثم وقف إلى جوار الغدير وأنصت إلى سكون الليل ملياً... رفع عينيه إلى السماء فإذا هي مرصعة بملايين النجوم المتناثرة صانعة أكواناً بعد أكوان... ران الصمت عليهما وطال، وكان الفتى قد لزم مكانه لم يبرحه، تعلقت عيناه بالسندباد في دهشة، فلقد بدا له وكأن قامته قد استطالت، وأنه تحول إلى جني راح رأسه يمتد في الفضاء حتى لتكاد رأسه أن تطاول السحاب، هز الفتى رأسه كمن يطرد عنها أفكاراً هي ضرب من خيال ووهم، فإذا السندباد يعود إليه، ويجلس أمامه وقد اتسعت ابتسامته، هتف الفتى:

«سيدي... كيف حدث أن ....».

قاطعه السندباد وهو يجلس إلى مكانه قائلاً:

«خلق الإنسان عجولاً!».

«اعلم يا سندباد أني ترددت طويلاً في السؤال خوفاً من لومك وسخريتك!».

«ليس في الأمر لوماً أو سخرية يا بني، ولو أني كنت مكانك،

ووجدت في صدر شبابي من يقص علي ما أقصه عليك، لكان حالي مثل حالك، وأمري مثل أمرك، وعجلتي في مثل عجلتك في أن تعرف وأن تقفز إلى النهايات قبل وقوعها!».

لزم الفتى الصمت وقد استشعر الخجل فأردف السندباد:

«ليت الأمر اقتصر على القانون الذي وضعه الرومان ذات زمان ولى... ذلك أن تاريخ هذه الأمة، مثلها مثل كل أمم الأرض، مليء بالعبر والحكايات!».

«فماذا حدث على السفينة المجاورة؟!».

هكذا سأل الفتى فأجاب السندباد:

«كان ما يحدث شيئاً فريداً في نوعه... ولقد التفتت كل الرؤوس وانصبت كل الأنظار إلى حيث أصبحت الصيحة صيحات، والصرخة صرخات، والطلقة طلقات، وساد الهرج والمرج كل مكان!!».

«وماذا عن الرجل الذي صعد إلى السفينة وكاد أن يشتبك مع مساعد الربان؟!».

ضحك السندباد ضحكة قصيرة وهو يقول أنه ما إن حدث ما حدث ووقع ما وقع، حتى تقدم مساعد الربان من الرجل مستعداً للعراك، فإذا بهذا يتراجع رافعاً يديه إلى أعلا في استسلام، راح يخطو إلى الخلف وقد اختفت عجرفته وإن غلفت السخرية كلماته، قال:

«إنك أيها الربان ترفض استضافتي ودعوتي على كأس أو فنجان من القهوة... حسن، أنت حر فهذه سفينتك، أليس الأمر كذلك، إنها أرضك التي تحكم من فيها وعليها، كذلك هذا الرصيف، إنه أرضي، ولن أقبل أن يطأه واحد من رجالك، فحذار!!».

كان الرجل يتحدث بيديه وذراعيه ورأسه وكأن لكل كلمة في جسده حركة ومعنى، قال ما قال وهو يستدير هابطاً سلم السفينة مسرعاً

وكأنه كان في مهمة وانتهى منها!.

هتف الفتى متسائلاً في إلحاح:

«فما الذي حدث فوق السفينة المجاورة؟!».

هنا ضحك السندباد ضحكة عالية وكأنه سمع طرفة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يراه فيها الفتى ضاحكاً، أخذ السندباد يضحك ويضحك حتى دمعت عيناه، ولقد ابتسم الفتى في البداية سروراً لضحكات السندباد التي رطبت من حرارة الحديث وتجهمه، غير أن عدوى الضحك سرعان ما انتقلت إليه فراح يضحك هو الآخر، ثم استغرق في الضحك حتى دمعت عيناه... ولقد فعل بهما هذا فعله، أحس كل منهما وكأن شيئاً كالكابوس قد أزيح من فوق صدريهما، وأحس الفتى أنه يقترب أكثر من السندباد، وكان هذا ينظر إليه في حنان وهو يمسح دمعه الضاحك، حتى إذا هدأت الضحكات، سأله الفتى:

«علام كان الضحك يا مولاي؟!».

«على شر البلية يا ولدي!!».

«ألم تقل أن هذه البلاد هي واضعة أول قانون ينظم حياة الناس؟!».

«نعم قلت هذا!».

«ومن يحمي القانون في أية أمة؟!».

«إنهم رجال الشرطة حماك الله من بطشهم!».

وكأن الفتى يفرغ ما في قلبه من هم، عاد يسأل:

«فكيف فعل الشرطي ما فعل، وكيف قال لك ما قال عندما لجأت إليه؟!».

ابتسم السندباد في عتاب، فانقض عليه الفتى بسؤال آخر:

«ألهذا ضحكت يا مولاي؟!».
قال السندباد متجملاً بالصبر:
«ألا تنتظر حتى تجد الجواب على كل سؤال يدور بخلدك؟».
ولزم الفتى الصمت تماماً!.

***

كان ما حدث فوق السفينة المجاورة غريباً كل الغرابة، عجيباً كل العجب، فعندما التفت الناس إلى حيث الضجيج والصيحات، رأوا شاباً يحمل على كتفه مخلاة مفعمة بينما راح الرجال من حول السندباد يتهامسون بأنه تبغ أو خمر أو طعام أو بضاعة سرقت من السفينة كي تباع في الأسواق وتدر من الأرباح مالاً بلا حصر ولا عدد... كان اللص يحمل مخلاته الثقيلة وهو يفر من رجال كانوا يطاردونه قافزاً من مكان إلى مكان، ومن مستوى في السفينة إلى مستوى آخر أو سطح آخر... ومن خلفه وحوله كان الرجال يحاولون الإمساك به دون جدوى، حتى إذا ما وصل إلى مؤخرة السفينة التي كانت تواجه مقدمة سفينة السندباد، حتى تحلق الرجال من حوله وتكاثروا عليه وسدوا أمامه كل طريق أو منفذ للهرب... راح الشاب يتقهقر وهم يتقدمون حتى لم يعد أمامه سوى سياج السفينة فقفز إليه في خفة القرود... فجأة، كروا عليه كرة رجل واحد فإذا به يمسك بالمخلاة رغم ثقلها البادي، ويدور بها في الهواء وكأنها منجانيق سوف يقذفهم به، توقفوا عن الحركة في حذر وكل منهم يستعد لملاقاة المخلاة أو الابتعاد عن طريقها إذا ما أطلقها الشاب من يده، حتى إذا أطلقها كانت دهشة الجميع شديدة، فلقد طارت في الهواء عابرة السطح إلى حيث كان الرجال الأربع يقفون إلى جوار السفينة في الانتظار... وبينما كان كبيرهم يجلس خلف مقود مركبة فارهة لامعة، كانوا هم يلتقطون المخلاة في براعة، ثم يدفعونها إلى داخل المركبة التي اختفوا فيها فانطلقت بالجميع وهي تزأر مبتعدة بين دهشة الجميع وذهولهم!!.

ما إن وصل السندباد في حكايته هذه إلى هنا، حتى انفجر الفتى ضاحكاً على غير انتظار أو توقع، وكانت ضحكته عالية فتوقف السندباد عن الحديث، هم الفتى بالاعتذار لكن ابتسامة السندباد شجعته على السؤال فسأل:

«إذن فلم يكن صعود ذلك الرجل إلى سفينة السندباد إلا لكي يلفت الأنظار عما كان يحدث فوق السفينة المجاورة؟!».

إلى هنا... زفر السندباد زفرة ارتياح وشت بسعادة وكان يقول مشيراً إلى رأسه:

«الآن بدأت تستعمل أعظم ما وهبك الله!».

كطفل مرح سأل الفتى:

«وماذا عن اللص المحاصر يا أبتاه؟!».

قال السندباد أن الرجال ظنوا، بعد أن أطاح الفتى بالمخلاة، أنهم الآن قادرون على الإمساك به لكن الأوان كان قد فات، ففي اللحظة التي تتبعت فيها عيونهم مسار المخلاة إلى الرصيف، كان هو يقفز من حيث كان فوق السياج إلى الفضاء الفاصل بين السفينتين، راح جسده يهوي حتى ظن البعض أنه ينوي السباحة فراراً، لكنه قبل أن يصل إلى سطح المياه تعلقت يداه بحبل من تلك الحبال المتشابكة التي تقيد السفينتين إلى الرصيف، اندفعت جموع البحارة والركاب نحو السياج فإذا به يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف، ثم يدور بسهولة حول الحبل دورة كاملة ويطلق جسده في الهواء طائراً كي تقبض يداه على حبل آخر، ثم ثالثاً، ثم وكأنه قرد من قرود الغابة، راح يتسلق الحبل حتى وصل إلى سطح سفينة السندباد... فاندفع رجال هذه السفينة نحوه مهرولين وقد بوغتوا بما فعل، فإذا به يفعل معهم ما فعله مع نظرائهم من رجال السفينة المجاورة، كان يروغ من هذا، ويحاور ذاك، ويقفز من

مكان إلى مكان ومن سطح إلى سطح وكأنه تحول إلى كرة من مطاط تتقاذفها يد شيطان مجنون. . . حتى إذا ما وصل إلى قاعدة الصاري السامق راح يتسلقه في خفة قط يهرب من خطر ماحق، حبس الجميع أنفاسهم وجمدوا في أماكنهم، ظل الشاب يتسلق الصاري في سرعة. . . وإذا عويل مركبات الشرطة يأتي من بعيد مزمجراً، وإذا أضواء المركبات الحمراء والزرقاء تضيء وتنطفىء وتخطف البصر وهي تقترب، تدفقت أربع مركبات إلى الرصيف وحاصرت السفينتين، ما إن توقفت في أماكنها، وقبل أن تفتح أبوابها ويهبط رجالها، كان الشاب قد وصل إلى قمة الصاري وهو يضحك ساخراً، وينادي البعض ويهتف بكلمات سمع الناس بعضها وحمل الريح بعضها الآخر إلى بعيد!!. . تعلقت به كل العيون، فإذا هو يلوح للجميع مودعاً، ثم يقفز من علياته نحو المياه وقد استقبلها بذراعين ممدودتين وجسد ممشوق منطلق مثل سهم اشتد عليه وتره. . . هوت قلوب الجميع خوفاً من سقوطه فوق سطح السفينة فتتحطم ضلوعه ويتناثر جسده شظايا. . . غير أنه مرق من جوار السفينة مندفعاً نحو المياه غائصاً فيها غائباً عن الأنظار!!.

* * *

اندفع الرجال، كل الرجال في السفينتين، نحو السياج وقد اشرأبت أعناقهم، وجحظت عيونهم في انتظار أن يطفو جسد الشاب لكن الجسد ظل مختفياً. . .

كان رجال الشرطة في ذاك الوقت قد غادروا مركباتهم بملابسهم الزاهية وأحذيتهم اللامعة وأذقانهم الحليقة وأغطية رؤوسهم الموضوعة فوق رؤوس تحملها أعناق ممشوقة في كبرياء غازي مقتحم. . . وإذا بالشرطي المكلف بحراسة السفينة يندفع نحو قمة السلم رافعاً يده بالتحية صائحاً متحدثاً بكل ما وقع وكلماته تتسابق من بين شفتيه وتتزاحم وكأن كل منها تريد أن تسبق الأخرى وقد اشتدت غلظة صوته

فكأنه فارس مقدام دخل معركة لا زال يبارز فيها ويحاور. . . وإذا بعض رجال منهم يتفرقون هنا وهناك، بينما صعد إلى السفينة اثنان من ذوي الرتب العالية والنظرة المتعالية والأوداج المنتفخة، وكان الربان نفسه، الآن، قد هبط من قمرته كي يستقبلهم مرحباً، تسبقه إليهم ابتسامة لا تشي بسعادة أو ترحاب أو صدق إحساس!.

صمت السندباد وقد سبحت عيناه في الفضاء المتلألىء بالنجوم وكأنه يستعين بها على استجلاب ذكرياته، وظل الفتى صامتاً حابساً أنفاسه في انتظار أن يتصل بهما الحديث. . . حتى إذا مرت لحظات بدت له في طول دهر عاد السندباد الحديث قائلاً أن الشاب غاب عن الأنظار في جوف المياه حتى ظن البعض بأنه ـ في قفزته تلك ـ غاص وغاص حتى ارتطم بالقاع وانغرس فيه. . . سار الربان وقد تبادل مع الضابطين الكبيرين كلمات إلى حيث السياج المطل على المياه، فإذا قارب صغير يندفع من بين السفينتين وكأنه بزغ إلى سطح المياه من جوفها، أخذ القارب يشق المياه في سرعة مبتعداً فما ظن أحد أن لهذا القارب علاقة بالشاب. . . حتى إذا ابتعد مسافة عشرين ذراعاً طفت فجأة على سطح المياه رأس الشاب وكان القارب يقترب منه وقد امتدت أيدي عملاقين كانا فيه كي تمسك بيدي الشاب وترفعانه إلى القارب المنطلق بسرعة السهم المشدود الوتر. . . وإذا هو فوق القارب يلوح للجميع وهو يطلق ضحكات مرحة!.

قال السندباد وهو يهز رأسه عجباً:

«وهكذا انفض السامر، وعاد كل شيء إلى حاله، الرجال إلى أعمالهم، والسفن تفرغ بضائعها وتشحن بضائع، وكأن ما كان ما كان!!».

سأله الفتى وقد بدا مستفزاً:

«وماذا عن رجلي الشرطة يا مولاي؟!».

قال السندباد بكلمات بدت وكأنها مغموسة في المر:

«قاما بواجبهما على الوجه الأكمل، سألا هذا وحققا مع ذاك، وانتقلا من سفينة إلى أخرى، شربا هنا كؤوساً قدمت لهما، واحتسيا هنالك كؤوساً أخرى... وحكيا مع الربابنة عما يفعله هؤلاء الشياطين من الكونترابندا... وعند الرحيل قدمت لهما الهدايا فما رفضاها، وودعا مشيعين بالاحترام كما استقبلا بحفاوة زائفة!!».

* * *

مع عودة الحياة إلى مجراها فوق سطح السفينة، أحس السندباد بالضياع... لم يكن شيئاً مما يدور حوله وأمام عينيه، بل ربما ـ هكذا قال للفتى في نبرة حزينة ـ لم يكن يريد أن يفهم... كان كلما مر به سأله عن معنى ما حدث وكنه ما وقع، ولا تأتيه الإجابة إلا من خلال نظرة دهشة، أو ابتسامة ساخرة... حتى إذا أضناه الأمر ولم يجد على أسئلته جواباً، قرر أن يغادر السفينة، وأن يرتحل إلى حاضرة تلك الأمة كي يشاهد عمارتها القديمة، وبقايا حضارتها التي منحت لبني الإنسان جزءاً من تاريخه!.

«هل أنت مجنون يا سندباد؟!».

هكذا سأله بحار رآه يستعد لمغادرة السفينة فأجابه:

«فيم الجنون وكل ما أبغيه هو التزود ببعض المعرفة؟!».

«ألم تسمع ما قاله كبير الكونترابندا قبل أن يغادر السفينة؟!».

«وهل كان يعني ما يقول؟!».

نظر إليه البحار دهشاً، راحت أصابعه تتخلل شعيرات ذقنه المتكاثقة، وكان يبدو حائراً لا يدري بما يجيب، حتى إذا ما استقر على أمر أمسك بيد السندباد وقاده إلى حيث السياج المطل على الرصيف،

وإذا به يشير إلى رجل يقف غير بعيد بجوار بالة هائلة من البضائع:

«هل ترى هذا الرجل؟!».

«ماذا عنه؟!».

أشار البحار إلى رجل آخر يقف خلف صندوق هائل الحجم:

«وهل ترى هذا الشاب المستند إلى الصندوق؟!».

هم السندباد بالنطق فأشار الرجل إلى ثالث:

«وهذا الفتى الغير بعيد، تراه ماذا يفعل هناك؟!».

انتفض السندباد ضائقاً بالأمر كله، قبل أن يفتح فمه أردف الرجل محذراً:

«إنهم هناك، في كل مكان، حيثما سرت سوف تراهم وتلتقي بهم ولسوف يقطعون عليك الطريق... خلف صناديق البضائع ومن حول البالات وفي الطرقات وعند البوابة وما خلفها؟!».

«إذن فلن يغادر أحدكم السفينة إلى هذه الأرض؟!».

هكذا صاح السندباد ممزقاً بالحيرة فإذا الإجابة تأتيه:

«إن غادرها أحدنا يا سندباد فما يجب أن يغادرها وحده... أبداً، لن يغادر السفينة أحد دون رفيق يؤنس وحشة الطريق!».

قال الرجل هذا ثم مضى مبتعداً عن السندباد لا يريد أن يسمع أو يقول!.

«إياك أن تقدم على ما تريد الإقدام عليه!».

هكذا حذر السندباد بحار آخر فقال السندباد:

«لقد سألت الشرطي المكلف بالحراسة فوضع فوق أوراقي بصمة

من ختم يحمله وأمدني بصك أخضر اللون وهو يتمنى لي رحلة سعيدة!!.

ضحك الرجل وهو يحكم وضع طاقيته الصوفية فوق أذنيه اتقاء لهبة ريح باردة ثم سأل السندباد ساخراً:

«أي شرطي تقصد يا رجل؟!».

ولم ينتظر من السندباد رداً، بل عاد إلى عمله كمن لا يريد مزيداً من الحوار!.

بحث السندباد عن العجوز الذي تعود أن يلقاه كلما هم بمغادرة السفينة إلى أرض من أراضي الله الواسعة، لكنه لم يجد له أثراً... كلما سأل عنه واحداً من الرجال أكد له أنه رآه منذ لحظات هنا أو هناك من أركان السفينة... يمم صوب ذلك الركن وتلك الكومة من الحبال حيث تعود أن يراه بغليونه وغطاء رأسه، فلم يجده... خاض في ممرات السفينة وهبط البحارة وجاس في قمرات الرجال وعنابرهم، وأطل من فتحات المخازن فما وجد له أثراً... عقد العزم على الرحيل وليحدث له ما يحدث، فلطالما حلم بزيارة تلك الحاضرة التي أحاطت بنشأتها الأساطير والحكايات، والتي رأت من الأفراح والأتراح والأمجاد والهزائم ما لا زال الناس يتناقلونه عبر الأجيال والأزمان... حمل مخلاة صغيرة وضع فيها قليلاً مما يحتاجه المرء في رحلة لا تستغرق سوى يوماً أو يومين، صعد إلى سطح السفينة وألقى ببصره نحو الرصيف وكان كل شيء فوقه يبدو طبيعياً... كانت الأوناش تحمل الصناديق والبالات من الرصيف إلى السفينة ومن السفينة إلى الرصيف، رأى أكداس البضائع متراصة في نظام صانعة فيما بينها ممرات ودروب تؤدي بالقطع إلى بداية الميناء، تمتم باسم الله، وقال توكلت على الله، وما كاد يخطو نحو السلم حتى دوت في سماء الميناء صرخة ألم عاتية... نظر نحو الرصيف، وما كاد يرى ما يحدث، حتى جمدت الدماء في عروقه، وتسمر في مكانه ذاهلاً.

الزمن يحيا من جديد!

أطرق السندباد ملياً وهو يهز رأسه عجباً مما كان قد رآه وراح يتذكره... تململ الفتى في مكانه فرفع إليه السندباد رأسه ونظر إليه متسائلاً، قال الفتى وقد وجد في نظرة السندباد تشجيعاً على الحديث:

«أليس فيما ترويه يا سيدي تشابهاً بتلك القصص التي يطلقون عليها القصص البوليسي؟!».

«ليس في الأمر تشابهاً يا ولدي فهي كذلك بالفعل!».

«هكذا في وضح النهار وأمام الناس؟!».

«هكذا في وضع النهار وأمام الشرطة والناس!».

«فماذا رأيت عافاك الله؟!».

وكان ما رآه السندباد عجيباً بحق... ففوق الرصيف رأى شابين مفتولي العضلات، قويا الجسدين، وكانا يوسعان شاباً ضئيل الجسم نحيف القد ضرباً لا رحمة فيه، حاصراه عند حائط من صناديق البضائع، وراحا ينهالان عليه بالكلمات، وكان دمه يسيل من أنفه وفمه، وهو يطلق صرخات استغاثة لفتت إليهم كل الأنظار، فما تحرك أحد، وما هب مخلوق لنجدته، حتى إذا سقط مكوماً تحت قدميهما، نفضا أيديهما منه ومضيا إلى حال سبيلهما!.

قال السندباد للفتى الجالس أمامه مبهور الأنفاس واجف القلب أن

الخوف وجد إلى نفسه سبيلاً، وبدلاً من أن يسير في طريقه ويغادر السفينة، خطا متراجعاً عائداً من حيث أتى، وما كاد يخطو خطوة، حتى جاءه صوت العجوز كي يوقظه مما كان فيه:

«قالوا لي إنك تبحث عني!».

التفت السندباد إلى حيث كان العجوز يصعد إلى سطح السفينة من كوة تؤدي إلى واحد من العنابر العميقة البالغة الاتساع... اندفع إليه مهرولاً حتى كاد أن ينكفىء على وجهه لفرط لهفته وهو يهتف:

«بحثت عنك في كل مكان!».

التقى به العجوز في منتصف الطريق وكان غليونه بين أسنانه يتطاير منه الدخان صانعاً من حول الوجه المغضن إطاراً من خيال... افتر فم العجوز عن ابتسامة ووضع يده فوق كتف السندباد وسار به إلى حيث ركنه الأثير، جلس فوق كومة من الحبال فجلس السندباد قبالته.

«هات ما عندك!».

هكذا قال العجوز وهم السندباد بالرد فما وجد ما يقول، تأتأ بكلمات لا معنى لها وإن كانتا يداه قد عبرتا عن حيرته وهو يشير نحو الرصيف فكأنه يقص، بالإشارة، ما رأى منذ لحظات... اشرأب عنق العجوز إلى حيث أشار السندباد وكان الفتى المضروب لا يزال مكوماً حيث تركه الشابان وكان يلعق جراحه ويمسح دماءه... وكان، في نفس الوقت، يدخن لفافة تبغ راح يمتص دخانها بشراهة فكأنه يستمد منها رحيق حياته... عاد العجوز بنظراته نحو السندباد ضاحكاً ضحكة دفعت هذا إلى القول:

«لو أنك رأيت ما حدث لما ضحكت!».

«هل ضربه أحد؟!».

«شـابان راحـا يوسعـانه ضـرباً حتى سـالت دماؤه وسقط تحت قدميهما!».

«أمن أجل هذا تراجعت عن مغادرة السفينة؟!».

نظر السندباد إلى الرجل في دهشة وتساؤل، أردف العجوز وكأنه قرأ أفكاره:

«لست قارئاً للغيب وليس في الأمر سر!».

«فكيف عرفت بالله عليك أني ... .».

قاطعه العجوز:

«لأنـك سألت عني وكـان كل من سـألتهم يعلمون أنـك مغادر للسفينة!».

«أتدري يا عماه أن واحد من رجال الشرطة لم يحرك ساكناً وهم يرون العدوان صارخاً!».

«لأنهم يعرفون الحقيقة!».

«أية حقيقة تلك أعزك الله؟!».

قال العجوز:

«إعلم يا سندباد أن ما حدث أمامك لم يكن حقيقياً والدم لم يكن دماً!!».

«كيف وقد شاهدتهما بعيني رأسي وكانت لكلماتهما موجعة!».

«إنه فن من الفنون أتقنـه البعض، فما كـانت اللكمات سـوى لمسات، وما كانت الدماء سوى سائل من لون الدم!».

«وماذا عن صرخات الفتى المضروب!».

«لقد أدى ما طلب منه بعد أن قبض الثمن!».

«أي ثمن؟!».

«ألم يطلب رجل الكونترابندا من القبطان ألا يغادر أحد السفينة؟!».

«حدث هذا أمام الجميع!».

«ولقد بلغهم أن واحداً من ركاب السفينة يستعد لمغادرتها!».

«لم يكن هناك غيري!».

«وكان هذا الواحد هو أنت بالذات!».

بدا السندباد عاجزاً عن استيعاب القول فأردف العجوز موضحاً:

«فاعلم يا بني أن لهم فوق كل سفينة رجل أو رجالاً يصدعون بأوامرهم وينفذون رغباتهم!».

هتف السندباد:

«رباه... ألسنا في بلاد القانون السائد؟!».

وكأن العجوز يسمعه استطرد:

«وهكذا جاءوا بهذا الفتى وتظاهروا بضربه، وتظاهر هو بالصراخ في نفس اللحظة التي هممت أنت فيها بمغادرة السفينة حتى لا تغادرها خوفاً وابتغاء للسلامة!».

لزم السندباد الصمت وراح يحملق في وجه العجوز وكأنه يلملم أفكاره المبعثرة... بينما كان العجوز يحشو غليونه بالتبغ، حتى إذا ما انتهى وأشعل الغليون تمتم:

«إنها الماقيا حماك الله من شر رجالها!».

«ألم تقل، كما قال الآخرون، أن اسمهم الكونترابندا؟!».

«هذا اسم من يسرقون السفن في الموانىء فقط!».

«فما هي هذه الماڤيا بالله عليك؟!».

«إنها يا ولدي عصابات للجريمة نظموا أنفسهم فأصبحوا كالحكومات لهم قوانينهم وأعرافهم ورجالهم وعقابهم وثوابهم... نشأت هذه العصابات أول ما نشأت في جزيرة صقلية التي جاء منها القائد جوهر الذي فتح مصر لخلافة الفاطميين، وأسس مدينة القاهرة حاضرة مصر المحروسة!».

«إنه أشهر من أن تعرفني به!».

«هو عَلَم في زمانه وفي كل زمان، غير أن أحفاده صنعوا لأنفسهم حيال الظلم الذي جثم على جزيرتهم الصغيرة قانوناً غير القانون، وأعرافاً يتمسكون بها في التعامل فيما بينهم وبين الآخرين... ويوماً بعد يوم، انتشروا، لا في أمتهم فقط، وإنما في أرجاء المعمورة وأممها... حتى إذا استقر المقام بالبعض منهم في بلاد الأمريكان، اشتد عودهم وقويت شكيمتهم وزاد مالهم وتضخمت ثرواتهم فحكموا وتحكموا وفرضوا على الجميع وجودهم!».

هتف السندباد كالملتاع وقد أذهله ما سمعه:

«هو عالم من اللصوص في بلاد كانت أول من وضعت للإنسان قانوناً!».

وضع العجوز يده فوق يد السندباد مربتاً، ثم استطرد:

«ولقد اشتروا فيما اشتروا من بني الإنسان العديد من رجال الشرطة، ووظفوا في تجارتهم المحرمة والمشروعة الكبراء والوزراء حتى زكمت فضائحهم أنوف الكون... قاومهم البعض فقتلوهم، وقُتِل منهم الكثير فأنجبوا من هم أشد بطشاً ممن قتلوا... فرضوا الأتاوات ونشروا المخدرات والخمور وتاجروا في الأعراض وامتلكوا الضياع وشاركوا في الأموال واندسوا في كل نشاط!».

«وهل كان ذلك الرجل الذي صعد إلى السفينة وتحدى مساعد الربان هو كبيرهم؟!».

ضحك العجوز حتى استلقى على قفاه، أحس السندباد بالحرج فتساءل العجوز:

«أتراك تريد أن تفهم كل شيء في جرعة أسقيك إياها؟!».

«زدني علماً جزاك الله عني خيراً!».

«إعلم يا بني أن رؤوس هذه العصابات لا يعرفهم إلا قلة قليلة من الناس... وحتى إذا عرفهم البعض فهم لا يمارسون ما يمارسون من جرائم وأعمال بأنفسهم، بل يعهدون بما يريدون ارتكابه إلى أتباع ارتبطوا بهم خوفاً أو طمعاً أو ضياعاً أو بحثاً عن لقمة عيش!».

«إذن فلم يكن ذلك الرجل الذي ... ...».

قاطعه العجوز:

«لم يكن هذا الذي ظننت أنه كبيرهم سوى صغير من صغارهم، مأمور بما يفعل!».

«كم تمنيت زيارة حاضرة هذه البلاد!».

«ولم لا تفعل؟!».

«في البداية حذرني الرجال من مغادرة السفينة، وعندما احتدم الشوق في صدري للمعرفة، رأيت ما رأيت وشاهدت ما لا بد أنك تعرفه!».

«لكل مطلب ثمن!».

«أتراك تشجعني يا أبتاه؟!».

«إذا عزمت فتوكل على الله!».

أرتج السندباد حتى الأعماق، أحس بالخزي والضعف معاً، رأى ابتسامة العجوز مشجعة ولغة عينيه لا تحتاج إلى من يترجم. . . أحس بالنشاط فجأة، نفض عنه الخوف وتململ في جلسته وإذا العجوز يردف:

«حتى ولو لم تصل إلى مبتغاك، فيكفيك أنك حاولت!».

انتفض السندباد وكأن قوة داخلية تدفعه إلى النهوض فنهض هاتفاً:

«فلقد عزمت!».

«فتوكل إذن!».

مد له السندباد يده مصافحاً فشد عليها العجوز في قوة وكأنه يمده بالثقة، كانت الضوضاء من حولهما تصم الآذان وقد بلغ نشاط الرجال فوق سطح السفينة ذروته، مضى في طريقه نحو السلم المؤدي إلى رصيف الميناء، وما كاد يصل إليه حتى أتاه صوت العجوز صائحاً:

«تذكر أن الإيذاء ليس حتماً بالمطاردة أو المنع أو حتى بالضرب وإسالة الدماء!».

التفت السندباد إليه وقد استبدت به الحيرة، فاستطرد الرجل:

«قد يكون الإيذاء بالمنكر من نساء أو خمر أو مخدر، لكن الطريق بعدها مفروش بالآلام!».

هز السندباد رأسه وقد وصلته الرسالة، هم بهبوط الدرج عندما عاد الصوت:

«وتذكر أيضاً يا سندباد أن الشجاعة هي الطريق لبلوغ المراد!».

كان العجوز قد بدأ هبوطه في كوة العنبر الكبير، اختفى جسده حتى إذا لم يبق سوى رأسه قال:

«والجبن هو الطريق، الأعظم للخسران!».

اختفى العجوز فتسمرت قدما السندباد فوق سطح السفينة فكأنه لا يريد أن يبرح... أطل على الرصيف وكان الشاب المضروب قد اختفى، تنقل ببصره بين فتيان وشباب وفتيات كانوا متناثرين هنا وهناك ولا عمل لهم سوى التسكع والانتظار... كصيادي الفرائس كانت عيونهم تمسح المكان وكأنها تعد على من فيه أنفاسهم، داخله الخوف عربيداً فكأن روحه تسحب من جسده، كاد أن يتراجع لولا أنه تذكر كلمات العجوز الأخيرة، شد قامته، وتقدم من السلم، وراح يهبط على مهل وهو يناجي ربه قائلاً:

«تحصنت بالله الذي لا إله إلا هو إله كل شيء... واعتصمت برب العصمة، وتوكلت على الحي الذي لا يموت... حسبي الإله من العباد، والخالق من المخلوق، والرازق من المرزوق... حسبي الذي يجير ولا يجار، حسبي الله الذي لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم!».

* * *

ما إن وضع السندباد قدمه فوق رصيف الميناء حتى أحس بحركة غامضة تطوف من حوله فكأن أشباحاً غير مرئية قد سلطت عليه، كان الطريق إلى بوابة الميناء يمر بأكداس البضائع وتلال من البالات المتراصة في نظام يصنع من بينها ممرات ودروباً... تقدم من درب فيما بين البالات بخطوات كانت ثابتة. خاض في الدرب حتى توارت السفينة عن عينيه وخفتت الأصوات فكأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر... انثنى إلى ممر يصل به إلى مبتغاه، فإذا شاب يبرز له من خلف صندوق هائل وكان يعترض طريقه، عرف السندباد فيه، على الفور، ذلك الشاب المضروب الذي رأى دماءه تسيل من وجهه وأنفه وفمه... حملق في وجهه دهشاً فلم تكن هناك آثار جروح أو بقايا دماء، اعترض

الشاب سبيله فتقدم منه السندباد قائلاً في سخرية من يعرف قدر نفسه:

«كان أداؤك على الرصيف رديئاً!».

كان الشاب معقوص الشعر، ضيق الملبس، يمضغ في فمه شيئاً لا يُبتلع، استند إلى جدار من صناديق خشبية مائلاً بجسده كي يسد الطريق وهو يتساءل في سخرية:

«أدائي؟!».

«نعم أداؤك أيها المتشبه بالفتيات فما صدّق أحد فوق السفينة أنهما كانا يضربانك!».

اعتدل الشاب في وقفته فعبره السندباد غير آبه، ما لبث أن جاءه الصوت:

«إذن فاحذر طريقك!».

التفت السندباد نحوه متسائلاً:

«مم الحذر؟!».

«إنهم يتربصون بك خارج الميناء!».

«أتحذرني من أصدقائك وأبناء جلدتك؟!».

«إنني أهوى الشجاعة وأحترم الشجعان!».

قال الشاب هذا وهو يهز كتفيه في لامبالاة مختفياً بين الصناديق، ومضى السندباد في طريقه في محاولة للخروج من تلك الشبكة المتقاطعة من الممرات والدروب، طال به السير فما عرف لنفسه مخرجاً وكأنه وقع في شرك نصب له، انثنى في ممر فلاحت له على البعد عند نهايته باحة بدت له مزدحمة بالمركبات والناس والحركة، أسرع في مشيته فإذا فتاة تهبط عليه من فوق صندوق هائل الحجم... كان سقوطها مفاجئاً فارتد السندباد إلى الخلف خطوة وهو يحملق فيها

دهشاً. . . كانت الفتاة ذات وجه جميل جمالاً يخطف البصر والقلب معاً، بدا له الوجه، لفرط جماله، وكأنه ملاك هبط عليه من السماء. . . كانت الفتاة قليلة الملابس كما كانت قصيرة تكشف عن جسد كأنه تحفة خلقت للمشاهدة لا للحياة. . . ارتبك السندباد وأسقط في يده وقد اجتاحته رغبة في النظر إليها دون مواصلة السير. . . كان شعرها مثل أسلاك من ذهب تتماوج مع كل حركة كانت تتحركها ومع كل خطوة كانت تخطوها نحوه مقتربة منه في وقوفه أو تراجعه. . . سددت إليه نظرة من عينين خضراوين في لون برعم اكتمل نموه، اخترقت نظراتها عينيه فكأن النظرات لغة ترسل حديثاً مليئاً بالدفء، أخذت تتأود وهي تقترب منه خطوة بعد خطوة حتى حاصرته فيما بين صندوقين صنعا وسط أكداس الصناديق جزيرة قائمة بذاتها. . . التصق ظهره بجدار صندوق فتوقف، قالت أول ما قالت:

«ما رأيك في صحبة توفر عليك مشقة البحث عن دليل؟!».

ما إن سمع السندباد صوتها حتى اضطرب قلبه وتقطعت أنفاسه، فكأن الصوت والنبرة والجِرْس جميعاً قد مرت بأذنيه ونفذت إلى قلبه من قبل، تمتم بكلمات بلا معنى فإذا هي تهتف بصوت عال:

«إسمي صوفيا فما اسمك أيها الوسيم؟!».

«كأني رأيتك من قبل!».

«أو كأني قدر يلاحقك أينما ذهبت!».

«في القلب لوعة وفي النفس حسرة وفي العقل حيرة فمن تكونين؟!».

انطفأت نظرة عينيها الخضراوين وطافت بهما سحابة من حزن غردت بصوت خفيض:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

انطلقت الذكرى من الماضي مثل سهم يخترق حجب الزمن، هتف:

«زابيا؟!».

التمعت عينا الفتاة بخوف عربيد وراحت تتلفت حولها كمن تخشى أحداً، نفذت نظراتها كي تخترق عينيه وجاءه صوتها هامساً مردداً:

«لم لا تعود من حيث أتيت؟!».

تسمر السندباد في مكانه وانعقد لسانه، عادت إلى الحديث في رفق حنون:

«الطريق الذي تبغيه مليء بالأشواك!».

«ما أردت سوى زيارة حاضرة بلادكم!».

«لم ترد سوى المعرفة التي تعز على الناس إلا من تسلح منهم بالعزم!».

«فهل تكونين دليلي في رحلة يشتد شوقي إليها!».

ما كاد ينتهي من حديثه حتى لاح له على البعد، من خلف الفتاة، شاب مفتول العضلات قوي البنية عاري الصدر طويل الشعر فكأن الزمن يعيد أحداثه من جديد، أو كأن الأمر رسالة غامضة عليه أن يدرك كنهها، التفتت الفتاة إلى حيث كان ينظر، ثم ارتدت إليه ببصرها هاتفة بصوت عال:

«لن أتقاضى منك كثيراً، لكني سوف أوفر عليك مشقة البحث!».

عقدت الدهشة لسان السندباد عندما قالت ما قالت ثم وضعت يدها في ذراعه هامسة:

«لا تنسى أن الشجاعة هي الطريق لبلوغ المراد!».

صدحت الدهشة في جنباته فالتفت نحوها فإذا ابتسامتها تضيء وجهها وهي تردف بالهمس:

«وإن الجبن هو الطريق الأعظم للخسران!».

كان السندباد الآن يسير إلى جوارها طائعاً، حتى إذا اقتربا من الشاب المفتول العضلات أضافت:

«إذا ما رأيتني أشتبك معه فعليك أن تولي الأدبار!».

توقف السندباد مستديراً إليها هاتفاً بصوت ممزق بالشوق الغامض:

«وكيف أراك إذن؟!».

امتدت يدها كي تربت على ذراعه قائلة في حنان:

«سوف تجدني أينما ذهبت فلا تخشى فراقاً!!».

كانا يبدوان للناظر الآن وكأنهما عاشقين يتناجيان، وإذا بزمجرة الشاب تأتيهما غاضبة:

«ألم أحذرك من مخالطة الغرباء؟!».

صاح السندباد محدثاً نفسه وقد استبدت به مع الدهشة حيرة عارمة:

«قد تتشابه الأحداث، لكن تشابه الكلمات هو ضرب من الجنون!!».

قال الشاب المفتول العضلات ساخراً:

«فلم لا تبحث عن بغيتك بعيداً عن هنا!».

قبل أن يرد السندباد صاحت الفتاة بالشاب:

«لم لا توسع الطريق فالرجل رجلي والصيد صيدي والرزق رزقي؟!».

في غضب مزمجر رد الشاب عليها بلغة وطنهم فما فقه السندباد مما قال شيئاً، ردت عليه الفتاة برطانة موسيقية المخارج وإذا بهما يشتبكان في حوار كانت الكلمات تنطلق فيه متلاحقة مختلطة المخارج سريعة النغم... تصاعد الغضب بالشاب فهجم عليها يريد النيل منها لكنها في خفة قطة قفزت جانباً ويدها تمتد إلى ذراعه ومخالبها الطويلة تنشب في لحمه فإذا خطوط من جراح ترتسم فوق الذراع متدفقة الدماء، صرخ الفتى وعاد يكر عليها لكنها كانت أسرع منه فلقد قفزت مرة أخرى وكاد الشاب أن يسقط فوق صندوق من صناديق البضائع... بدا المشهد للسندباد غريباً كما بدا له مسلياً فاستغرق فيما كان يرى وقد تجمع على الأصوات شباب وفتيات وفتيان راحوا جميعاً يشاهدون ويضحكون ويشجع بعضهم هذه والبعض الآخر يشجع ذاك... حتى إذا كانت لحظة انتبه فيها السندباد إلى وقفته خارج دائرة أقفلت على الشاب والفتاة، حانت منه نظرة إلى الباحة المزدحمة وتذكر نصيحة الفتاة فانطلق مغادراً المكان لا يلوي على شيء...

في صدر الباحة رأى السندباد بوابة الميناء وكانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء، فانطلق يعبر البوابة إلى الخارج، وما كاد يخطو حتى أحس وكأنه وقع في مصيدة نصبت له بإحكام...

وكان ما حدث له خارج البوابة، أغرب من الخيال.

ما فائدة الأرض إذن؟!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه مشتعلاً بالشوق لسماع ما حدث، أنه لاحظ شيئاً بدا له غريباً في أول الأمر. ثم أدرك بعد طول مطاف أنه أمر طبيعي... قال: إن كل موانىء الدنيا تتشابه في أشياء معينة... فما تجده في ميناء بالهند سوف تجد مثيلاً له في ميناء في بلاد الرومان أو الإغريق أو بلاد الفرنسيس أو الإنجليز... الناس هم الناس، والمهن هي المهن والكلمات تكاد تكون نفس الكلمات، ولا يأتي الإختلاف إلا في العادات التي تتباين بين هذا الوطن وذاك، أو بين هذه الميناء وتلك حتى ولو كانتا في وطن واحد... قال إن ما شاهده فيما بعد البوابة في ميناء نابولي، كان صورة أخرى لما شاهده في بومباي قبل هذا بشهور أو سنوات لم يعد يذكر... ولا اختلاف بين هنا وهناك إلا في الملبس والسحنة التي شاء الخالق أن يحور فيها ويبدل ويجمل بما يتفق وطبيعة المكان... وهو، ما كاد يجتاز البوابة في ذلك اليوم، حتى انقض عليه رهط من الرجال أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم وكل يعرض عليه بضاعته من نساء أو خمر أو نزهة أو ليلة حمراء... غير أنه أحس وسط هذا الجمع الغريب أن ثمة شيء كان يدبره هؤلاء الذين أحاطوا به، فتوقف متوجساً خيفة، ولمحت عيناه شرطياً يقف غير بعيد مع زميل له، وكانا يشاهدان ما يحدث أمامهما بعيون بدت فيها اللامبالاة صارخة... هم باختراق السوار الذي أحاط به عندما شعر بوخز في جنبه الأيمن... أوجعه ذاك الوخز فأراد الإرتداد

لكن الأجساد من حوله كانت مثل حائط صلد، إلتفت إلى اليمين فإذا شاب نحيل الجسد قوي البنيان تبدو أعضاؤه على نحافتها مثل أسياخ من حديد ركبت على هيئة إنسان، وكانت عيناه تشي بنظرات مفعمة بشر مستطير، هم بالحديث فإذا الشاب يقول في صوت كظيم:

«إن لم تطع ما آمرك به، فلسوف يجد هذا الخنجر طريقه إلى قلبك!».

ضحك السندباد ضحكة خفيفة وهو يقول للفتى الجالس أمامه فاغر الفم من الدهشة، أنه أدرك في هذا اليوم، وفي تلك اللحظة بالذات، أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه تعلم مما حدث ألا يخاف إذا ما التقى به في عاصفة أو مرض أو حادث قد يقع له هنا أو هناك، وإذا كان الناسك الهندي قد أوصله إلى أن الإختيار هو قدر ابن آدم. فلم لا يختار أن يموت شامخاً مرفوع الرأس شجاعاً بدلاً من الموت جبناً أو هرباً... وإذا كان البحار العجوز قد أنبأه أن الشجاعة هي الطريق لبلوغ المراد، وأن الجبن هو الطريق الأعظم للخسران، فما فائدة أسفاره وترحاله وتجواله بين البلدان والأوطان والمدائن والناس... وهو لا يدري من أين واتته تلك الشجاعة التي رفعته لاستقبال الأمر بابتسامة هادئة ارتسمت على شفتيه وهو يستدير مواجهاً ذاك الفتى أمام الجميع غير آبه بذلك الوخز الذي اشتد مع حركته، كي يقول له بصوت سمعه الجميع:

«إن كنت تظن أنك قاتلي دون مقاومة أو عقاب فأنت واهم!».

قال السندباد ما قال فإذا الصمت يهبط كي يلف الجميع من حوله لفاً، هم الشاب بالحديث لكن السندباد أردف وقد استمد من شجاعته شجاعة:

«إن وخز خنجرك يؤلمني، ألا تخفف الضغط قليلاً على ضعيف يزور بلادكم لأول مرة؟!».

سرت بين الجميع همهمة سبحت في سماء المكان ممطرة الجميع بالدهشة. أصاب الشاب ارتباك فاقترب من السندباد أكثر وشدد وخز الخنجر في جنبه وهو يقول من بين أسنانه:

«إن كنت تظن أنك سوف تفلت بحيلة من حيل أمثالك من الفراعنة فأنت واهم!».

مد السندباد يده كي يمسك برسغ الفتى في قوة صائحاً كمن يخطب في الجميع الجمع المحيط:

«إن أبناء الفراعنة يستقبلون ضيوفهم على الرحب والسعة وليس بالخناجر في الأجناب!».

جاءت كلمات السندباد وسط الصمت عالية فكأنها الطبل يدوي، وصلت إلى آذان الشرطيين فما استطاعا تجاهلها، إلتفتا نحو السندباد الذي كان قد إستطاع نزع النصل من جنبه بجذب رسغ الفتى الذي إستجاب وقد أحس بالخطر، وسرعان ما اختفى الخنجر في كم سترة الفتى الذي صاح بصوت جهوري جلجل في المكان وهو يلوح بيدين خاليتين كمن يشهد الجميع على كذب الإدعاء:

«أهذا جزاء من يعرض عليك خدماته أيها السيد؟!».

ضحك السندباد وقد انتشى بما أحرز من انتصار وهو يقول:

«وهل يعرض الرومان خدماتهم على الآخرين بوخز الخناجر في الأجناب أيها القيصر؟!».

هم الفتى بالرد فإذا السندباد يلاحقه كمن يذكره:

«أم ترى أن اسمك هو بروتس؟!».

تعالت الضحكات من حول السندباد وتحرك الشرطيان في تكاسل نحوهما، فكأن حركتهما إيذاناً ببدء أحاديث وكلمات وضجيج اصطنعته

أفواه المحيطين بهما، وقد أخذوا يتحدثون ويتناقشون ويزعقون ويحدث بعضهم بعضاً وهم يشيرون ويلوحون بالأذرع والأيـدي والرؤوس. . . وإذا حركة كالموج تجتاح الجميع، فتختلط الأجساد، وتتلاقى لتفترق، وإذا جسد السندباد مثل سفينة في مهب ريح تتقاذفها الأجساد. . . ولقد بدا له الأمر كله وكأنه كابوس لا معنى له ولا منطق، وازداد إحساسه بذاك الشيء الذي يدبر في الخفاء، حاول الخروج من تلك الدائـرة الجهنمية، راح يتلفت حوله بحثاً عن مخرج، فإذا الأفواه، كل الأفواه، تصيح وتعرض البضائع أو السهرات أو الرحلات، إستجمع السنـدباد قواه وشق طريقه في اتجاه الشرطيين اللذين بدوا في تكاسلهما وكأنهما يستمتعان بما كان يجري ويحدث، ما لبث أن صاح فيهما:

«ألستما من رجال الشرطة أم أن في الأمر خدعة؟!».

تردد الشرطيان للحظة كان السندباد فيها قـد استطاع الإقتـراب خطوات، مضت اللحظة وإذا أحدهما يخلع من خاصرته هراوة راح يزيح بطرفها من كانوا يفصلون بينه وبين السندباد. هدأت الأصـوات وانفرج الجمع، حتى إذا ما واجه الشرطي السندباد قال في غلظة:

«ماذا تريد أيها السيد؟!».

كاد السندباد أن ينشق من الغيظ، صاح:

«ماذا أريد؟!. . . أتسأل يا سيدي عما أريد؟!».

«ماذا حدث كي تحدث كل هذا الضجيج في الطريق العام؟!».

«ما حدث قد حدث أمام عينيك أيها الشرطي!».

في برود وغطرسة قال الشرطي:

«إذن فلديك شكوى؟».

«أنت خير من يعلم هذا!».

«فما هي شكواك؟!».

أسقط في يد السندباد فما عرف بماذا يجيب. . . راح يحرك ذراعيه في كل اتجاه وقد ضاعت منه الكلمات. عاد الشرطي إلى السؤال في ضيق:

«ما هي شكواك أيها السيد؟!».

في استسلام قال السندباد:

«أريد بلوغ مركبة تحملني إلى حاضرة بلادكم!».

أشار الشرطي بهراوته إلى حيث كان الطريق ـ الآن ـ خالياً أمام السندباد، قال:

«فلم لا تذهب حيث شئت؟!».

بلغ الضيق بالسندباد مداه، صاح في وجه الشرطي:

«ألم ترَ بعيني رأسك كيف أحاطوا بي ومنعوني من الحركة أو الذهاب إلى أي مكان؟!».

«وهل يغضبك أن يعرض عليك الناس ما قد تكون في حاجة إليه؟!».

«وماذا عن الخنجر الذي . . . .».

توقف السندباد عن الحديث وهو يتلفت حوله ويدور بعينيه في الوجوه التي كانت ما تزال محيطة به فما وجد لوجه صاحب الخنجر وجوداً. . . دقق البصر وعبر الوجوه وجهاً بعد الآخر فإذا صاحب الخنجر قد اختفى. . . أحس بالمكيدة وقد أحكمت حوله. . . إنتابه الحنين إلى العودة إلى السفنية عله يجد فيها ومن رجالها من يحميه. . . غير أنه أحس بالخجل من نفسه فخطا يريد الإبتعاد وهو يلوح قائلاً:

«لا عليك يا سيدي فأنا ذاهب!».

امتدت الهراوة القصيرة في يد الشرطي تعترض طريق السندباد وتوقفه حيث كان. . . وقال هذا:

«إلى أين؟!».

أحس السندباد أن ثمة حلقة خفية من فولاذ تضغط عليه، قال في مرارة من يئس من العدل في بلاد القانون:

«ألم أنبئك أني أبغي زيارة حاضرة بلادكم؟!».

«وهل سمحت لك شرطة الميناء بمغادرة السفينة؟!».

دهش السندباد فلقد كانت لهجة الرجل توحي باتهام حوله من مظلوم إلى ظالم، ومن معتدى عليه إلى معتدٍ. . . وإذا الضحية هو مقترف الجريمة. . . لكنه، مع إحساس عميق بالمعجز قال:

«نعم. . . سمح لي الشرطي المختص بأن أبرح وإلا لما استطعت مغادرة السفينة أصلاً!».

مد الشرطي يده نحوه قائلا:

«فأين الصك إذن؟!».

«صك. . . أي صك تقصد؟!».

تعالت الضحكات من حول السندباد، ولاحت على وجه الشرطي إبتسامة تشي بالإزدراء، وتبادل المحيطون بهما الكلمات والتعليقات، حتى إذا ما رفع الشرطي هراوته، صمت الجميع، فقال:

«ألم يضع الشرطي المكلف بحراسة السفينة فوق أوراقك بصمة من خاتم كان يحمله. . . ألم يعطك بعد هذا بطاقة خضراء اللون كي تجتاز بها البوابة؟!».

قال السندباد: «نعم»، وهو يتذكر أن هذا كان قد حدث بالفعل، فراحت يداه تجوسان خلال جيوبه في اضطراب من ارتكب جرماً، حتى

إذا ما عثر على الأوراق تنفس الصعداء، فأخرجها وكانت تحمل تلك البصمة من ذاك الخاتم الأزرق. قدم الأوراق للشرطي الذي راح يقلبها ويقرأ ما فيها وهو يمط شفتيه في لامبالاة، حتى إذا ما انتهى من القراءة سأل السندباد:

«فماذا عن الصك الأخضر؟!».

عاد السندباد يبحث في جيوب معطفه وسرواله من جديد فما وجد للبطاقة أثراً... وقع في الحيرة وتعالت من حوله الهمهمات وارتسمت على شفتي الشرطي إبتسامة ساخرة وهو يعيد عليه السؤال عن الصك، فإذا الهمهمات تتحول إلى ضحكات كانت عدواها تسري من شخص إلى آخر، وكان عدد المحيطين به يزداد لحظة بعد أخرى كلما مر عابر سبيل واجتذبه حب الإستطلاع لمعرفة ما كان يجري... فإذا المكان وقد اكتظ بالرجال والنساء والفتيات والفتيان وحتى بعض الأطفال الذين وجدوا لأنفسهم مكاناً بين السيقان، وكان الجميع يسخرون ويتبادلون التعليقات بينهم فما فهم السندباد مما كانوا يقولون كلمة... حتى إذا انتابه اليأس من العثور على ذلك الصك قال:

«يبدو أنني فقدته أو نسيته فوق السفينة!».

إختفت الإبتسامة من وجه الشرطي وحل محلها غضب تمثل في نظرة بالغة الصرامة، ما لبث أن أومأ إلى زميله إيماءة تحرك بعدها هذا كي يمسك بذراع السندباد قائلاً في أدب وقح:

«هل تتكرم يا سيدي بالسير معي دون مقاومة؟!».

«إلى أين؟!».
هتف هاتف من وسط الجمع:

«إلى مخفر الشرطة!».

«وماذا جنيت حتى تقودني إلى مكان كهذا؟!».

قال الشرطي صاحب الهراوة في كلمات واضحة:

«لقد تسللت إلى أراضينا دون إذن من سلطات الميناء!».

«ولم لا تسأل زميلك المكلف بحراسة السفينة وهو لا يبعد عنا سوى خطوات!».

«أعلم يا سيد سندباد أنني لست مخولاً بالسؤال، ففي المخفر من يتقاضون رواتبهم من أجل هذا!».

هم السندباد بالنطق لكن الشرطي الآخر جذبه في غلظة وهو يزمجر:

«لا داعي للمقاومة حتى لا تضيف إلى جرائمك جريمة مقاومة السلطات!».

هتف السندباد وقد مزقته الدهشة:

«جريمة... جرائم؟!».

«هيا!!».

جذبه الشرطي في عنف فانفرج الجمع المحيط موسعين للسندباد طريقاً. ولم يكن أمامه من سبيل سوى الإستسلام، غير أنه ما كاد يخطو خطوة حتى دوت في سماء المكان صيحة:

«إنتظر!».

إلتفت الجميع نحو مصدر الصيحة، فإذا صاحبة العينين الخضراوين تأتي من جهة الميناء مهرولة وقد تطاير شعرها مع عدوها وغطى العرق وجهها وجسدها وكانت تلهث... ران السكون على الجميع وهي تتقدم وفي يدها تلك البطاقة الخضراء وكانت تلوح بها في وجه الشرطي صاحب الهرواة قائلة:

«هذا هو الصك يا ماريو فارفع يدك عنه!».

إربـد وجه الشـرطي بغضب لم يحاول أن يخفيـه، وسرت بين الجميع همهمات عندما زمجر هذا مهدداً الفتاة:

«صوفيا!!».

وضعت الفتاة يدها في خاصريها وهي تصيح في تحد:

«ماريو!!».

«من أين جئت بهذا الصك؟!».

في سخرية ضحك لها الجميع قالت:

«هل تريد الحقيقة أم تراك تريد أقوالاً رسمية!».

اندفع الشرطي الآخر نحو الفتاة وقد ترك يد السندباد مزمجراً:

«عليك بالتزام الأدب أمام الناس وإلا كان عقابك عندي!».

صاحت وهي تقترب منه متحدية:

«إذا كنت تريد الحقيقة، فلقد نشلت البطاقة الخضراء منه بعد مغادرته السفينة!».

صاح صائح من وسط الجمع:

«وماذا عن الأقوال الرسمية؟!».

«لقد سقطت الصك من جيب المسكين عندما هاجمه واحد من رجال الكونترابندا فوق الرصيف!».

في تلك اللحظة، بدا وكأن الشرطيان قد أسقط في يدهما... تبادلا نظرة سريعة قال بعدها صاحب الهراوة:

«أرني هذه البطاقة؟!».

ساخرة هتفت الفتاة:

«لن تمسه قبل أن يأخذها هو، فهذا حقه!».

قدمت البطاقة للسندباد، وما أن أمسك بها حتى هم بأن يقدمها للشرطي صاحب الهراوة حتى هتفت به محذرة:

«لا تعطه إياها، بل دعه يراها فقط!».

صاحت امرأة من وسط الجمع:

«مجنونة... أنت مجنونة يا صوفيا!».

قالت صوفيا وهي تتقصع في وقفتها:

«ليس لهذا المسكين ذنب فيما حدث، إنه راكب يريد مشاهدة بلادنا، وكانت الكارثة أنه شاهد فيكم ما ليس منها!!».

من بين أسنانه قال صاحب الهراوة وهو ينصرف:

«سوف تدفعين الثمن غالياً... هذا وعد مني!».

قال هذا وهو يبتعد مع زميله نافضاً يده من كـل شيء... من جديد عاد الجميع إلى الإلتحام، وكانت الفتاة قد اشتبكت مع المرأة في عراك تقاذفتا فيه بالكلمات، وكما حدث فوق الرصيف تماماً، إشترك الكل في العراك، البعض يناصر هذه والآخرون يناصرون تلك، وجد السندباد نفسه خارج دائرة تجمعت من حول المرأة والفتاة تلفت حوله فما صدق عينيه... كان الآن حراً تماماً، وما كان هناك من يلقي بالاً إليه، بدا الطريق أمامه خالياً وكأنه يغريه بالفرار. فاندفع مهـرولاً وهو يوسع الخطى، غير أن إصـراره كان قـد ازداد... ورغبته في زيـارة حاضرة بلادهم، قد اشتدت!!

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه منصتاً بكل حواسه، أنه راح يضرب في شوارع المدينة على غير هدى... أخذ ينتقل من شارع إلى

شارع وهو يتلفت حوله في دهشة وكأنه يمتص ما يحيط به امتصاصاً، بدت له شوارع المدينة شديدة الإتساع غزيرة الزحام بالناس والمركبات التي كانت تمرق أمام عينيه في سرعة وكأن الناس - كل الناس - في عجلة من أمورهم.. رأى محفات تحمل أناساً كانوا يبدون له متجهمين أو متعبين وكانت هي الأخرى تنهب أرض الطرقات نهباً... قال السندباد للفتى الجالس أمامه أنه رأى في شوارع تلك المدينة الفقر في صورة تمزق القلب، ولقد كان الجو قارس البرودة وهناك من كانوا يرتدون أسمالاً ممزقة ويستجدون عند نواصي الشوارع والطرقات... كما أنه رأى الغنى في أبهى مظاهره عندما كانت تمرق من جواره مركبة فاخرة يجلس في مقعدها الخلفي رجل أو امرأة تتدفق الصحة من جلودهم وألوان بشرتهم... لم يكن يدري إلى أين تقوده قدماه، أو كيف السبيل إلى ما يحمله إلى حاضرة البلاد... وبينما هو في حيرته رأى شرطياً يقف في مفترق طرق ينظم مرور المركبات بيديه في حركات بالغة الإنضباط فكأنه راقص يؤدي في الطريق العام رقصته على موسيقى خفية... سره ما كان يراه وكان منظر الشرطي بالنسبة إليه مبهجاً غاية البهجة، عن يمينه رأى رجلاً يقف إلى جوار عامود وقد فرد بين يديه جريدة انهمك في قراءة ما فيها، تقدم منه في أدب وحياء، فرد عليه الرجل تحيته بهزة من رأسه، سأله عن السبيل لبلوغ حاضرة البلاد فأشار الرجل إلى شارع وقال كلاماً لم يفهم منه السندباد كلمة، حتى إذا انتهى الرجل هز السندباد رأسه شاكراً ومضى إلى حيث أشار الرجل... ظل سائراً في الطريق تكاد رأسه أن تدور لكثرة الحركة فيه، ما لبث أن وجد نفسه في قلب ميدان شديد الإتساع فكأنه مدينة قائمة وسط المدينة. تسير فيه المركبات في خطوط مستقيمة أو دائرية ويعبر فيه البشر الطريق في نظام... في صدر الميدان كان ثمة بناء هائل ذا بوابات عديدة بلا أبواب، والناس يدخلون منها ويخرجون في كثافة لا تخف لحظة... استبد به الفضول واستطاع أن يجد لنفسه طريقاً إلى حيث هذا المبنى

الذي وقف أمامه مشدوهاً، من خلف البوابات شاهد السندباد حركة أشد من الحركة في الميدان، تقدم في وجل من إحدى البوابات فإذا في الداخل دنيا ليست كالدنيا وحياة ليست كالحياة. . . عبر البوابة إلى الداخل فما منعه أحد وما اعترض طريقه مخلوق. . . خطا في الداخل خطوات فإذا هو في ساحة بالغة الإتساع. كانت الساحة مسقوفة بأعمدة من حديد وزجاج، كان الزحام شديداً وهناك رجال ونساء وأطفال وفتيات وفتيان والكل يهرول ويروح ويجيء والجميع في عجلة من أمرهم. . . من حوله رأى من ينتظر ومن يتبادل الهمس ومن يتبادلون القبلات. . . في صدر المكان وقعت عيناه على قاطرات من حديد زاهية الألوان تبدو كوحوش مزينة، تحمل في رؤوسها قرون استشعار تلتصق بأسلاك تمتد إلى حيث لا نهاية لمدى البصر، مرقت من جواره مركبة صغيرة محملة بالحقائب يقودها رجل يرتدي زياً أخضر اللون ورأسه مرفوعة وفوقها قبعة ذات حافة سوداء لامعة، وكان يبدو شامخاً وكأنه يقود مركبة السلطان، أحس السندباد أنه يغرق في بئر بلا قرار فاحتار في وقفته وتردد في حركته، غير أنه خطا إلى حيث لا يدري يريد استكشاف المكان فإذا بصوت ملهوف ينادي:

«سندباد. . . سندباد!».

كان النداء غريباً فهو غريب في بلاد لا يعرفه فيها أحد وإن بدا له الصوت مألوفاً، إلتفت إلى حيث جاءه النداء، فإذا فتاة الميناء تهرول ناحيته لاهثة الأنفاس هاتفة:

«أين ذهبت وقد بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك؟!».

أخذت السندباد الدهشة فتساءل:

«كيف عرفت أني قادم إلى هنا؟!».

أطلت من عينيها الخضراوين نظرة عتاب وقالت:

«ألم تقل أنك تروم زيارة روما؟!».

أحس بالخجل لكنه عاد إلى السؤال مكابراً:

«وكيف عرفت إسمي؟!».

مرة أخرى يومض العتاب في عينيها، لكنها أجابت:

«ألم يكن إسمك مكتوباً في البطاقة الخضراء؟!».

لم يجد السندباد ما يقوله، إنتابه الإرتباك فتمتم بكلمات بلا معنى فإذا هي تسأله:

«لم تبحث عن الغموض حيث الحقيقة ساخرة؟!».

«أليس فيما حدث أمام عينيك ما يدعو المرء إلى التشكك والريبة؟!».

«لا تهرب من السؤال فهكذا كنت دائماً!».

أرتج السندباد أمام اتهامها وازاد ارتباكه وهي تصوب نحوه عينيها فإذا نظراتها الخضراء مثل مخدر يسري في الجسد مغلفاً إياه بضباب يغيب العقل والإحساس معاً... بدا له وجه الفتاة وكأنه يضيء من الداخل فإذا جمالها فريد في عينيه، قال يريد للحديث بينهما امتداداً بلا نهاية:

«لماذا كانت حمايتك لي؟!».

«لأني اخترتك!».

هكذا جاءه ردها بسيطاً فاضطرب متسائلاً:

«ولماذا كان اختيارك لي بالذات؟!».

«إنها مهنتي!».

هتف ملتاعاً وقد تحطم التمثال الذي ما كاد يصنعه في الخيال:

«مهنتك؟!».

«ألم أعرض عليك رفقة توفر عليك الكثير من المال، وتكسبك الكثير من المعرفة؟!».

هم السندباد بالنطق، لكن عيناها نفثتا نظرة أغرقته في فيض من حنان، أخذت بيده وسارت به إلى ركن من المكان، كان الركن منزوياً خلف جدار يحجب عنهما ضوضاء المكان، لفته على الفور سحابة من خدر وغموض سرعان ما استسلم لها راضياً، استندت على الجدار أمامه فكأنها تأوي إلى حصن حصين، أشعلت لفافة من تبغ نفاذ الرائحة، نفثت دخان لفافتها ورفعت إليه عينيها الخضراوين وهي تتساءل:

«لماذا تريد الذهاب إلى روما؟!».

«أليست حاضرة أية أمة هي عنوانها؟!».

إبتسمت في مرارة وهي تقول:

«ليست روما الآن هي تلك التي تريد وتشاهد!».

«ولكن بقايا العصور القديمة لا تزال شاهدة على ما مر بالأمة من أحداث!».

«لكي يكون للتاريخ عبرته، وليس للسعي وراء الأحلام!».

بحث السندباد عما يقول فلم يجد، إبتسمت في وهن وهي تسأل:

«وماذا تريد أيضاً يا سندباد؟!».

«ألا ينتهي هذا اللقاء!».

ألقت بلفافتها إلى الأرض وسحقتها بقدمها وهي تقول وكأنها ضاقت بالأمر كله:

«دعك من الأحلام واهبط من جنتك الوهمية إلى الأرض حيث يعيش بنو آدم!».

«عجبت لأمة تضع للبشر قانوناً ثم تخرقه!».

اعتدلت في وقفتها كمن تستعد للإنصراف وهي تسأل:

«وإذا طبق القانون كما تريد، فكيف يكون حال الدنيا؟!».

هتف في حماس:

«جنة!».

«وإذا تحققت الجنة... فما فائدة الأرض إذن؟!».

كانت جملتها مثل لطمة أفاق بعدها مما كان فيه، ما كاد يهم بالنطق، حتى شبت على أطراف أصابعها، ثم طبعت على وجنته قبلة قالت بعدها:

«وداعاً!».

ثم انصرفت تاركة إياه والدمع يملأ عينيه.

بلاد الظلام الأبيض!

ما إن انتهى السندباد من الحديث عن رحلته في بلاد الرومان، حتى بدا على الفتى الجالس أمامه وكأن بركاناً يزمجر في صدره، نظر إليه السندباد ملياً ثم سأله:

«ماذا بك يا ولدي؟!».

كمن يعاني من آلام حادة هتف الفتى متوسلاً:

«مولاي . . . كيف السبيل إلى الخلاص؟!».

«بالرضا!».

هكذا قال السندباد في حسم فهب الفتى واقفاً زاعقاً:

«أي رضا تقصد؟!».

قال السندباد في صوت هادىء:

«ذلك الذي يدفعك إلى غرس شجرة حتى ولو كان يوم القيامة على مرمى حجر منك!».

«إنك تلقي بي إلى الضياع والتمزق!».

«إنما يلقي بك إلى الضياع إحساسك بالعجز أمام الصعاب، ويدفعك إلى التمزق قلة المعرفة وضعف اليقين!».

«حصيلتي من الحياة متواضعة!».

«فلم لا تصبر حتى يكتمل الزاد؟!».

«فهل يكتمل؟!».

في حرارة ومرارة قال السندبادِ

«أبداً!!».

«فكيف الطريق إلى الخلاص؟!».

«أي خلاص تقصد؟!».

فرد الفتى ذراعيه فبدا وكأنه خيال مآتة وضعه فلاح في حقله كي يطرد عنه الغربان، أخذ يتلفت يمنة ويسرة كمن يبحث لنفسه عن سبيل، أخيراً وجد الكلمات فقال:

«الخلاص ممن يضعون القانون ثم يخرقونه، ممن يدعون الإستقامة وهم على اعوجاج، من شاهري سيوف الإيمان وهم يحاربون الله، من المطبلين في كل زفة، والمزمرين في كل لمة، والهاتفين للباطل قبل الحق... الخلاص من الشر الجاثم فوق حياة ابن آدم، الخلاص من الكذب والإدعاء والرياء والنفاق!».

لاذ السندباد بالصمت وهو ينظر إلى الفتى وقد برقت عيناه، فأردف هذا قبل أن ينطق:

«ولا تقل لي أن كل هذا لا يصح إلا في الجنة وأن الأرض وجدت للعذاب!».

رفع السندباد حاجبيه دهشة، فعاد الفتى إلى الحديث مستطرداً:

«أنت وأنا نستطيع هذا ونحن لسنا من طينة غير طينة هؤلاء الذين يعيثون في الأرض فساداً».

«فكيف تطهو طعامك إذن؟!».

هكذا سأل السندباد فبدا السؤال غريباً، حملق الفتى في وجه السندباد وقد ظن أنه يسخر منه، عاد السندباد يسأل وكأنه يؤكد سؤاله:

«فكيف تطهو طعامك يا صاحبي؟!».

«فوق النار حتى ينضج!».

«وهكذا الإنسان!».

«زدني علماً!».

قالها الفتى وهو يعود إلى جلسته أمام السندباد وكان ينتفض انفعالاً فقال هذا:

«لعلك نسيت أن الليل قد انتصف منذ ساعة، وأن وراءك في الصباح عمل لا بد لك أن تنجزه، وأهل لا بد لك أن ترعاهم!».

تأفف الفتى هاتفاً:

«أوكلما خاض بنا الحديث في برزخ قد يوصلنا إلى بر، ذكرتني بما يجب علي أن أفعل؟!».

مال السندباد نحوه باسماً وهو يقول في حنان:

«فكيف تلوم من يخطىء وها أنت تخطىء في حق أقرب الناس إليك؟!».

إنتبه الفتى إلى ما في قول السندباد من تقريع فأحس بالخجل... ما لبث أن نهض مودعاً وكان على موعد مع السندباد بعد صلاة مغرب اليوم التالي... مضى الفتى وابتعد صوت خطواته حتى اختفى فشعر السندباد برغبة حارقة في البكاء. ها هو قد أخذ الفتى إلى حيث ما يثير من أحداث وما يشد انتباه من كان في مثل عمره. فما تركه

إلا وقد أثقل كاهله بمزيد مما يبعث على التفكير، وما يترك في النفس حسرة وثورة. . . تذكر أيام أن كان في مثل عمره فتذكر زابيا الهندية، إلتقى بها أول مرة فكانت بلا إسم وكأنها تنبهه إلى حقيقتها التي لم يدركها إلا بعد أن نضج على نار تجربة كانت بالحق بالغة المرارة. . . ثم كانت في الهند زابيا، ثم حملت بعدها أسماء بلا حصر ولا عدد. . . فأين هو الآن منها؟!.

خفق قلب السندباد بالحنين، قالت له ذات يوم أنها ستكون دائماً معه كي ترشده وتدله، حاول أن يفكر فيما يمكن أن يقصه على الفتى في اليوم التالي، فطاف ذهنه بالماضي مفتشاً فما ازداد إلا حيرة. . . حاول أن ينتقي من رحلاته رحلة تخفف الوطأ عن ذهن الفتى فما استطاع الإختيار، حانت صلاة الفجر فنهض إلى الغدير وتوضأ وصلى ركعتي السنة وقرأ من القرآن سورة جرى بها لسانه فكأنه يتغنى بكلام الله. . . ما ان انتهى حتى نهض للصلاة فأداها، ثم رفع كفيه إلى السماء ضارعاً:

«أللهم خفف الوطأ عني فما عدت أحتمل، أللهم إنك تعلم ما بنفسي ولا أعلم ما بنفسك فيسر لي سبيل القص واحفظ لساني من الزلل. . . أللهم أعني على القيام بما أردت لي القيام به، أللهم أسبغ علي من رحمتك ما يبعث الطمأنينة في قلبي فلكم أخشى على الفتى من قولي. . . أللهم لا إله إلا أنت سبحانك، جل شأنك، وعظمت قدرتك كما ضعفت قدرتي، فخذ بيدي، ولا تتركني لنفسي إنك سميع مجيب الدعوات إن كانت صادرة عن قلب عامر بالإيمان بك!».

ما إن انتهى السندباد من دعائه، حتى أحس وكأن قواه تخور مثلما كان يحدث في كل مرة ناجى فيها ربه إيماناً واحتساباً. . . كأن روحه تُستلب منه مال إلى الأرض، وتوسد ذراعه، ثم نطق بالشهادتين، وأغمض عينيه ونام!!.

* * *

مضى اليوم بالسندباد في تأمل فما شعر إلا والشمس تنحدر نحو المغيب، حتى إذا غابت نهض إلى صلاة المغرب فأداها، وما كاد يفعل حتى أتاه صوت أقدام الفتى تقترب منه في هرولة من يريد أن يقطع الطريق في خطوة، حتى إذا ما جلس الفتى أمامه وألقى عليه بالتحية، رد عليه بأحسن منها وقد لحظ البشر يعلو وجهه، فسأله كعادته:

«كيف كان يومك يا صاحبي؟!».

هم الفتى بالرد لكنه توقف وقد التمعت عيناه بدهشة لم يخفها، فسألهالسندباد:

«هل أصابك من قولي مكروه؟!»

«بل أصابتني الدهشة!».

«ولم كانت دهشتك؟!».

«هذه هي المرة الثانية التي تناديني فيها بيا صاحبي».

«في أرض الكنانة مثل يجري على ألسنة الناس يقول: إذا كبر إبنك آخيه!».

هتف الفتى في جزل:

«وهل كبرت حتى تآخيني؟!».

قال السندباد وكان في لهجته تقريع واضح:

«لم تريد أن تحصل على كل شيء بلا جهد، لم لا تفكر في الأمر حتى إذا أعيتك الحيلة سألت؟!».

أطرق الفتى خجلاً فقال السندباد لائماً:

«سألتك سؤالاً فما أجبتني عليه!».

قال الفتى كمن يعتذر:

«كان يومي رائعاً، ورزقي وفيراً، وأهل بيتي في أحسن حال!».

«ألهذا علا وجهك البشر والسرور؟!».

«بلى يا مولاي!».

«فلم لا تختزن بعضاً من السعادة ليوم تصيبك فيه بعض السهام؟!».

أطرق الفتى وقد أدرك ما في قول السندباد من معنى، لكنه ما لبث أن تمتم:

«ألا تقص علي رحلة أخرى؟!».

«هل تعرف بلاد الظلام الأبيض؟!».

«رفع الفتى رأسه هاتفاً:

«وهل هناك ظلام أبيض؟!».

زفر السندباد زفرة حارة فلقد وجد أخيراً طريقه إلى رحلة جديدة من رحلاته بعد طول بحث وحيرة في الإختيار، ثم ابتسم قائلاً:

«نعم يا صاحبي... هو ذلك الظلام الذي يدثر الدنيا في بحر الظلمات إذا ما جاءت أيام الخريف وعبرت الدنيا برزخها إلى الشتاء القارس في تلك البقاع!».

«أليس هذا هو المحيط الذي تقوم فيه جزر الأزورس؟!».

هكذا سأل الفتى، فراح السندباد يحكي!.

* * *

كانت السفينة قادمة من شمال القارة الجديدة، وكان الجو عاصفاً كما كان بارداً شديد البرودة... كانت في طريقها إلى بلاد البرتغال التي تجاور الأندلس، حتى إذا ما انتصف الطريق فيما بين أرض وأرض،

هدأت العاصفة، واستكان سطح الحياة وهبط الظلام على الدنيا... كانت السفينة تمخر العباب على مهل وهي تطلق بين الحين والحين صفارتها تحذيراً لسفن قد تمر من جوارها أو قريباً منها حتى لا تصطدم بها... وما إن انقضى الليل وطلع النهار حتى ظل الظلام على حاله وإن كان لونه قد تحول من السواد إلى البياض... فلقد هبط على الدنيا ضباب كان يتكاثف لحظة بعد أخرى حتى تعذر على الرجل أن يرى كفه إذا ما فرد بها ذراعه أمام عينيه!.

«أإلى هذا الحد تتعذر الرؤية؟!».

«إلى هذا الحد تتعذر الرؤية وأنت في وضح النهار والشمس فوق السحاب في كبد السماء!».

ران الصمت عليهما قليلاً، فانتهز الفتى الفرصة كي يسأل:

«وما بلاد البرتغال أعزك الله؟!».

قال السندباد إنها بلاد تقع بكاملها على حافة بحر الظلمات، وهي تكوّن مع الأندلس وبلاد الإسبان شبه جزيرة جنوب غرب بلاد الغال التي يطلقون عليها اليوم إسم فرنسا... ورغم أن الأرض واحدة والأصل واحد، ولا يفصل هذه عن تلك سوى خط وهمي صنعه الإنسان إسمه الحدود، إلا أن لهذه البلاد لغتها ولتلك لغتها، قد تشترك اللغتان في الأصول، لكنهما تفترقان وتتباينان عند التناول.

قال السندباد فيما قال للفتى الجالس أمامه، إن هذا الجزء من بحر الظلمات يبدو، دون غيره من مياه المحيط، وكأنه يحمل أسراراً لا قبل لبني الإنسان بسبر أغوارها... يقول البحارة فيما بينهم، إذا ما كانوا راحلين عن بلاد البرتغال موغلين في المحيط، إن على كل منهم أن يودع الحياة... فبالرغم من العلم والمعدات وتطور الأسطرلاب واستحداث ما يقي الإنسان مخاطر العبور، إلا أن عبور المحيط لا زال

يبدو وكأنه نوع من المغامرة غير المحسوبة... قال السندباد بعد لحظة تفكير:

«ربما كان هذا بسبب المحيط واتساعه وغموضه، وربما كان لسبب آخر!».

«وما هو هذا السبب بالله عليك؟!».

قال السندباد أنه في تلك الأيام كان يحكم البرتغال والياً إسمه «سالازار»، إتسم حكمه بالحديد والنار. واستمر حوالي أربعين عاماً عانى فيها الناس من بطشه الكثير، فما كان أحدهم يستطيع أن ينتقد وضعاً، أو يفتح فماً، أو يعترض على شيء... حتى عم الفقر وساد، وأقفرت البلاد من الفرح والمرح، وساد الوجوم وجوه الكبار والصغار، وخاصم الإبتسام شفاه الجميع!.

قال السندباد إنه على مدار التاريخ، وفي أية أمة يقوم فيها الإستبداد في شكل الحاكم والياً... سوف تجد نفس السمات والأوصاف مهما اختلفت اللغة أو الدين أو المناخ أو الأرض!.

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!».

هكذا قال الفتى فتبسم السندباد قائلاً:

«هكذا قول الفاروق عمر بن الخطاب!».

واتصل الحديث بين السندباد والفتى حول الولاة في الزمان والمكان، حتى إذا ما أكمل دورته وعاد إلى بلاد البرتغال قال:

«إن حاضرتها هي ميناءها الكبير، اسمها لشبونه وينطقه أهلها «ليزبوا»، وهي تقع على الضفة الغربية لنهر عظيم اسمه نهر التاج، حيث تصل إليها السفن عبر ممرات مائية تصنع منها ميناء مثالياً، تحدها من الغرب جبال شامخة تبدو مثل حائط يقيها رياح المحيط العاتية!».

وعندما خاضت سفينة السندباد في مياه النهر واستشرفت الميناء،

شاهد السندباد ذلك التمثال الهائل للسيد المسيح وقد أقيم على ربوة عالية، وامتد ارتفاعه إلى نيف وخمسين متراً... خاضت السفينة في مياه النهر فما رأى السندباد قارباً من تلك القوارب التي تحيط بالسفن القادمة في كل موانىء الدنيا، رست السفينة إلى رصيف تبادل رجاله مع بحارة السفينة تحيات مقتضبة... مدت الحبال وعلا ضجيج الجنازير وتعالت الأصوات ووضع الجسر فيما بين السفينة والرصيف، وكان أول من عبره جندي متجهم الوجه متوسل النظرات... سأل السندباد الرجال عما كان يراه من حوله فقال له رجل منهم:

«إعلم يا سندباد أن أهل هذه البلاد لا يعرفون للمرح طعماً، ولا للإبتسام طريقاً!».

وقال آخر في صوت خفيض:

«هو ذلك الوالي سالازار الذي يكتم أنفاس الناس وكأنه يبغي منع الهواء عنهم!».

وقال له العجوز وقد ركن إلى جلسته فوق كومة الحبال:

«لم تتعجل الأمور يا سندباد... لم لا تنتظر حتى ترى بنفسك وتسمع!».

«ألا تزودني بما يعينني على المعرفة يا عماه؟!».

أشار العجوز نحو تمثال السيد المسيح وقال:

«هل ترى هذا التمثال؟!».

«ومن لا يرى تمثالاً بهذا الحجم وهذا الإرتفاع سوى أعمى!».

«إذا ما عبرت النهر إلى الضفة الأخرى، فلسوف ترى من حول التمثال ما قد تقطع به بعض الوقت... وإذا ما دفعت درهماً وركبت المركب في داخله، فمن خلال عينيه تستطيع أن ترى كل المدينة حتى المحيط!»

«أتظنني أسعى إلى مثل هذه المتعة؟!».

وكأن العجوز لم يسمع سؤاله قال:

«بجوار التمثال أقام أهل البلاد عدداً من المطاعم التي تقدم أنواعاً من الأسماك شهية الطعم فريدة المذاق!».

هم السندباد بالحديث فأضاف الرجل:

«أنصحك بمطعم زينه صاحبه بأصداف البحر، في كل مكان رشق الأصداف التي استطاع أن يجمعها من شطآن الدنيا كلها، على الأرض والجدران والسقف وحتى الموائد فحوله إلى متعة للناظرين!».

صمت العجوز قليلاً وأحس السندباد باليأس، فتبسم هذا ثم قال بنغمة موحية:

«وجبة تأكلها في هذا المطعم، سوف تذكرك ببلاد الهند!».

إنتفض السندباد هاتفاً وقد انتبه:

«وما علاقة الهند بهذه البلاد!».

«إنها تحتل قطعة أرض إلى الجنوب من بومباي، إسمها «جوا»!».

هتف السندباد بلا وعي:

«زابيا..!».

ما إن قال السندباد هذا حتى نهض العجوز حاملاً إبتسامته الغامضة مع غليونه، وهكذا راح السندباد يستعد لمغادرة السفينة، وكان يقينه فوق كل شك، في أنه سوف يلتقي هنا بزابيا مرة أخرى...

هتف الفتى في لهفة:

«ولكن كيف؟!».

صوت يحط من عل!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه أنه، بعد أن سمع ما قاله البحار الشيخ، حتى أدرك أنه ملاق زابيا في بلاد البرتغال. . . ولقد انتاب الفتى انفعال بدا صارخاً على ملامحه فصاح صيحته تلك: «ولكن كيف؟!»، فتبسم السندباد وقد استكانت على وجهه سكينة من نوع فريد. . . قال السندباد للفتى أنه تعلم بعد طول تجوال وطواف وسنوات مفعمة بالأحداث والتجارب، أن هناك من الظواهر ما عجز الإنسان دائماً عن إدراكها ومعرفة كنهها، وأن كل ما توصل إليه ابن آدم عن تلك الظواهر لم يكن سوى استنتاجاً أو اجتهاداً بلا يقين قاطع، قال: إن الأمر ربما كان نوع من الإستشفاف لما سوف يحدث، فلا زالت ملكات الإنسان للإنسان مجهولة أيضاً، وأغلب الظن أنها سوف تظل مجهولة لأزمنة قادمة وأحقاب، وأن ابن آدم كلما فض غلافاً وجد نفسه أمام غلاف آخر عليه أن يفضه. . . قال إن الأمر ربما كان نوعاً من التمني، ذلك أن زابيا أبداً لم تغب عن خاطره منذ أن التقى بها لأول مرة في جزر الأزورس. . . فهي لم تكن بالنسبة إليه فتاة كالفتيات اللواتي عرفهن، لم تكن أنثى، ولكنها كانت، ولسوف تظل دائماً، مثل دليل يقوده إلى ما يسعى إليه وقد غمض عليه. . . هي. . . هي شوق للحقيقة مهما تنوعت أوجهها، وهي دائماً هنالك، تلتقي به إذا ما أرادت أن تقوده في درب يصعب عليه السير فيه وحده، وتغيب عنه إذا ما كان لا بد له من البحث. حتى بأظافره، عن كنه ما يريد!.

قال السندباد للفتى الجالس أمامه مستعداً للإستماع، إنه ـ بالرغم من كل هذا ـ غادر السفينة وقد ملأه مع الشوق يقين ثابت بأنه لا بد ملاق زابيا في صورة ما، في مكان ما فوق أرض هذه البلاد... ولكن كيف؟!... هذا ما لم يفكر فيه ولم يضعه في حسبانه ولم يشغل نفسه به... كان موقناً أن الشوق إليها لا يناديها، إنما الحاجة هي التي تستجلبها على غير انتظار!!.

* * *

بدا له رصيف الميناء في ذلك اليوم قفراً بالرغم مما كان فيه من حركة ومظهر للحياة... تروح المركبات فيه وتجيء حاملة البضائع من السفن أو إليها، يعمل الرجال فوقه وفوق السفن تكسو وجوههم جهامة من يريد الإنتهاء مما في يده كي يولي بعدها الأدبار... راح ينظر إلى تمثال السيد المسيح القائم على الضفة الأخرى من النهر وكان لا بد من سبيل للوصول إليه، لمح على البعد شرطياً يقف إلى جوار سور في تكاسل، تقدم منه وألقى عليه التحية فهز هذا رأسه في لامبالاة. سأله عن كيفية الوصول إلى التمثال فأومأ نحو جانب من الرصيف رست عليه بضعة قوارب في انتظار الزبائن... إتخذ لنفسه مكاناً في أحدها وانتظر صاحبه أن يكتمل عدد الركاب لكنه لم يكتمل رغم طول الإنتظار ومضى الوقت... كان هناك من حول السندباد قلة من السائحين وركاب السفن الراسية وبحارتها، أخيراً أبحر القارب وصاحبه يدمدم بكلمات غاضبة، ما إن وصل إلى الشاطىء الآخر حتى صعد السندباد سلماً وسط من كانوا معه وهم يثرثرون ويتحدثون في عجب عما يشاهدونه من تجهم الناس من حولهم... عند قاعدة التمثال وجد السندباد شيئاً من حياة وشيئاً من إبتسام وشيئاً من ضحكات كانت تموت فور ولادتها من الحناجر... وكان أهل البلاد من البائعين أو الأولاد أو الباحثين عن رزق يحملون وجوهاً كأنها تماثيل من شمع لا يحس ولا يشعر، رفع درهماً ودخل إلى المصعد المركب في قلب التمثال حتى وصل إلى

داخل الرأس فيه. . . هنالك وجد من سبقه من الرواد متزاحمين حول نافذتين عرف على الفور إنهما عينا التمثال. . . إنتظر حتى جاء دوره فأطل من إحدى العينين وكان المنظر أمامه خلاباً. . . طالعته المدينة بالنهر بالجبل بالمحيط الممتد أمامه في جلال يأسر القلب حقاً، اقترب منه سائح كان بصحبة زوجته وتحدث إليه فيما لا يذكر السندباد فراح يثرثر معه حول تلك المدينة التي تبدو قفراً وكأن هؤلاء الناس بلا تاريخ ولا هوية، طال الحديث بينهما فراح السندباد يتحين الفرصة للإنصراف وكان يشعر وكأن شيئاً مجهولاً يجتذبه من مكانه إلى حيث لا يدري. راح يتحين الفرصة حتى إذا حانت غادر المكان لا يلوي على شيء. . . غادر قاعدة التمثال وراح يضرب في المكان على غير هدى. . . عثر مصادفة ـ وكان قد نسي الأمر برمته ـ على ذلك المطعم الذي حدثه عنه البحار الشيخ فما تردد في ارتياده. . . صعد درجاً زين كله بأصداف البحر الملونة. دلف إلى قاعته كأنها بنيت تحت سطح الماء في عالم البحر السحري الغامض، كان كل شيء مصنوع من أصداف البحر التي جمعها صاحب المكان من كل الدنيا، الموائد والحيطان وحتى المقاعد غطيت جميعها بتلك الأصداف التي أضفت على المكان رونقاً فكأنك إنتقلت من عالم إلى عالم آخر، يقوم على خدمة المكان فتيات يرتدين أردية من قماش ناعم راح يتماوج في سيرهن فكأنهن جنيات يسبحن في عوالم من خيال. . . وقع اختيار السندباد على مائدة جلس إليها وكانت تقع إلى جوار نافذة تطل على النهر، ما إن استقر في مقعده حتى حانت منه نظرة نحو الشرفة التي تطل على الميناء. ما أن فعل حتى جحظت عيناه وارتجف كمن أصابه مس وهو يهمس بصوت خاله نواح:

«زابيا!».

إلى مائدة في صدر الشرفة كانت تجلس سيدة متوسطة العمر ذات وجه يشرق بجمال أخاذ. كان الوجه أسمر شديد السمرة، في سمرته احمرار نابع من قلب الجسد وكأنه ضوء خفي، قد جمعت شعرها الغزير

الشديد السواد وعقصته خلف الرأس فكأنها واحدة من نساء الأساطير جاءت إلى الحقيقة في تحد. . . على مقعد مجاور كانت تجلس فتاة صغيرة ذات وجه أبيض وشعر فاحم وعينان شديدتا الزرقة. . . مضت ثوان قبل أن تلتفت تلك السيدة نحوه وكأنها تلبي نداء خفياً، إلتقت عيناها بعينيه فارتجفت الجفون منهما. حملقت فيه فإذا العينان هما نفس العينين العميقا الغور المليئتين بالأسى الصارختين بعذاب غامض، حاولت السيدة أن تنتزع عيناها من عينيه فما استطاعت. . . سبحت نادلة المطعم تتأود في خطوها فكأنها سمكة تسبح في مياه عميقة الغور، وقفت إلى جواره منتظرة أوامره فما انتبه إليها وقد كان مستغرقاً في حلم بدا له عسير المنال، أخيراً جاءه صوتها كي يوقظه وينبهه، قالت:

«هل يحب سيدي أن يشرب شيئاً قبل تناول طعامه؟!».

التفت نحو الفتاة فطالعته عينان سوداوان واسعتان يظللهما حاجبان كثيفي الشعر مستقيمين فوق العينين فكأنهما رسما رسماً، ارتج السندباد فلقد طالعه فيهما حزن يصرخ فكأنه الأنين. . . حزن كان قد طالعه في عينين أخريين منذ لحظات، التفت نحو الشرفة كمن يريد أن يقارن حزناً بحزن لكن السيدة كانت قد اختفت مع طفلتها وما كان غياب عينيه عنها قد تعدى طرفة عين أو طرفتين، أصابه الإرتباك فما درى ماذا يفعل، وداخله القلق فتحرك في مكانه متململاً وعادت النادلة تناديه:

«سيدي!».

«هل أستطيع الإنتقال إلى الشرفة؟!».

هكذا هتف في لهفة فأفسحت له النادلة الطريق وقد انتابتها الدهشة:

«أينما تريد يا سيدي!».

هرول السندباد إلى الشرفة وما كانت الشرفة بغيته: ما إن خطا

إليها حتى راح يتلفت يمنة ويسرة بحثاً عن فتاته الضائعة مع طفلتها الصغيرة لكنهما بدوا وكأنهما تبخرا في الهواء. . . فكيف غادرت وما كان لها أن تغادر المكان إلا إذا مرت أمامه فلقد كان يجلس قبالة السلم الموصل إلى الطريق. . . ظن السندباد بنفسة الظنون وداخلته الحسرة، جلس إلى مائدة وطلب منها طعاماً وما درى ماذا طلب. . . أيقن في لحظة أنه كان واهماً، وأن شبح زابيا يطارده عبر بلاد الدنيا، أو أن شوقه إليها يمثلها خيالاً يظنه واقع فإلى أين تأخذه خيالاته؟!. . . سأل نفسه إن كانت هي التي تطارده أم أنه الباحث عنها في كل وجه يراه. . . مضى الوقت وجاء الطعام فما أن ذاق منه لقيمات حتى أفاق قليلاً مما ألم به وقد وجد في مذاق السمك الذي قدم إليه شيئاً فريداً بحق. . . غير أنه، طوال جلسته تلك، لم يستطع أن يتوقف عن التلفت هنا وهناك بحثاً عن فتاته الضائعة. . . حتى إذا أراد أن يدفع ثمن ما أكل، سألته نادلة المطعم وقد لفت نظرها كثرة تلفته وقلقه:

«هل ينتظر سيدي شخصاً بالذات؟!».

رفع السندباد رأسه نحو الفتاة وهو يشعر وكأنها تنزع عنه نفسه فتعريه من ذاته، قال:

«أنا غريب أزور بلادكم لأول مرة!».

«فهل تبحث عن شيء بعينه؟!».

أحس في لهجتها طراوة من يريد أن يمد يد المساعدة فتشجع وقال:

«نعم. . . سيدة كانت مع طفلتها إلى تلك المائدة المطلة على الميناء هناك!».

ابتسمت الفتاة وهي تعيد إليه ما تبقى له من مال كان قد دفعه إليها، رد يدها في رفق فابتسمت شاكرة دون أن ترد على استفساره

الخفي، عندما همت بالإنصراف سألها مستوقفاً إياها:

«أما كانت هناك سيدة تجلس إلى تلك المائدة؟!».

«نعم يا سيدي، كانت هناك مع طفلتها!».

«فمتى غادرت المكان؟!».

«لاح على وجه الفتاة إستنكار للسؤال لكنها تساءلت بدورها:

«أوتعرفها يا سيدي؟!».

إرتبك السندباد وما عرف بمَ يجيب. غير أنه هتف وقد وجد مخرجاً:

«كلا، ولكنها كانت تجلس ها هنا، ثم، إذ بها تختفي دون أن تغادر المكان!».

رفعت الفتاة حاجبيها الكثيفين في دهشة من لم يدرك معنى الحديث، أردف السندباد موضحاً وقد أدرك أنه أوقع نفسه في مأزق:

«لو أنها غادرت المكان لمرت من أمامي فلقد كنت أجلس في الداخل قبالة السلم الموصل إلى الطريق!».

أومأت الفتاة إلى غير بعيد عنه قائلة:

«لا بد أنها غادرت الشرفة عن طريق السلم الآخر!».

إلتفت السندباد إلى حيث أومأت الفتاة وكان ثمة سلم يؤدي من الشرفة إلى الطريق مباشرة... همت بالإنصراف فهتف متودداً:

«أوتعرفينها أنت؟!».

قالت على الفور وقد عادت نغمة الإستنكار إلى صوتها:

«إنها واحدة من أشهر نساء هذا الوطن!».

حملق فيها السندباد دون أن ينطق فأردفت:

«إنها بياترز. . . أشهر مطربات الفادو في بلادنا!».

«وما هو الفادو أعزك الله؟!».

ما كادت النادلة تفتح فمها بالحديث حتى جاءها من الداخل نداء غاضب، إرتجفت كأن بها مس من شيطان والتفتت إلى حيث كان يقف رجل سمين ذا كرش عظيم ووجه وسيم قبحته تقطيبة تتوسطها عينان ترسلان شرراً من غضب.

«إسمح لي يا سيدي!».

هكذا قالت وهي تنصرف مهرولة متعثرة الخطى وقد أصابها خوف عظيم، ما إن وصلت إلى الرجل السمين حتى ألقى إليها هذا ببضع كلمات هزت رأسها بعدها في طاعة ثم إنصرفت. . . ما إن اختفت حتى حول الرجل نظرته الغاضبة نحو السندباد الذي نهض مغادراً المكان لا يلوي على شيء!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه مفعماً بالدهشة لما يسمع: إن الأمر بدا له ـ كالعادة ـ غريباً كل الغرابة. . . ولقد كان يعرف أنه يستطيع أن يسأل عن تلك السيدة الشهيرة وعن هذا الفادو الذي حدثته عنه نادلة المطعم لكنه لم يفعل. . . داخله خوف غامض، بل داخله عزوف عن لقاء زابيا ـ حتى ولو كانت هنا ـ لا يدري مصدره. . . إستقل قارباً عبر به النهر إلى الضفة الأخرى، ما إن وصل إليها حتى راح يضرب في شوارع المدينة على غير هدى. . . وكلما مضت ساعة كلما ازداد عجبه وإشتدت رغبته في معرفة سر ذلك التجهم الذي استولى لا على أهل البلاد فقط، بل على المدينة وعمارتها وشوارعها وحوانيتها وطعم الحياة فيها!.

قال السندباد أنه لم يصدق نفسه عندما سأل عن مزار لمعالم

المدينة فلم يجد سوى متحفاً صغيراً للمركبات الأثرية القديمة التي كان يركبها الملوك والولاة على مر التاريخ. . . ولقد ذهب إلى هذا المتحف فما وجد فيه شيئاً جديداً أو مختلفاً عن ذاك الذي رآه وشاهده في متاحف مماثلة في ممالك أخرى. . . عافت نفسه كل شيء وعزف عن التجوال فقرر العودة إلى السفينة والبقاء فيها حتى تبرح الميناء، فلقد كان شعوره قوياً بأن ثمة ما يجثم فوق صدره ولا يعرفه!.

كانت الشمس قد مالت نحو الغرب وغرق قرصها المتوهج في المحيط المترامي. . . وبدت له شوارع المدينة نصف مظلمة نصف مضيئة فانقبض قلبه. . . تأمل تلك الحال التي تعج بحياة ترتدي قناع التجهم فقال إن لله في خلقه شؤون. . . حتى إذا اقترب من الميناء وكان يعبر طريقاً إلى طريق، سمع على البعد صوتاً يناديه فإلتفت!.

في ظلام ناصية بجوار حانة خافتة الأضواء كانت صيحات البحارة فيها وغناؤهم يتصاعد من خلف الأبواب النصف مغلقة. لمح شبحاً ربعاً يلوح له. . . إقترب السندباد من الشبح، فإذا هو البحار الشيخ بلحمه ودمه وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلقاه فيها السندباد بعيداً عن السفينة فهتف وقد استبد به العجب:

«ترى ما الذي دفعك إلى مغادرة السفينة يا عماه؟!».

قال الشيخ باسماً وكان الغليون بين أسنانه يرسل دخانه:

«غادرت السفينة بحثاً عن ضال أعود به إلى حيث يجب أن يكون!».

قطب السندباد ولزم الصمت لثوان ثم قال:

«كنت عائداً إلى السفينة!».

قال البحار الشيخ مؤنباً:

«قبل أن تسمع الفادو؟!».

هتف السندباد كالملتاع:

«وما الفادو أعزك الله!».

«إبحث تجد!».

«لقد رأيت اليوم أشهر مطرباته!».

رفع البحار الشيخ حاجبيه الكثيفين في دهشة وهو يهتف:

«بياترز؟!».

«هكذا قالت لي نادلة المطعم!!».

«قد جاءك النداء فلم لا تلبي؟!».

هكذا غمغم البحار الشيخ وهو يضع يده في ذراع السندباد متأبطاً إياه... سار به في طريق العودة إلى قلب المدينة فما اعترض السندباد وما سأل عن السبب، ترك نفسه للرجل الذي راح يخوض به في الشوارع من شارع إلى شارع ومن حي إلى آخر ومن حارة إلى حارة... حتى إذا وجد السندباد نفسه، وقد تقدم الليل قليلاً، داخل حي من تلك الأحياء التي تتشابه في كل الدنيا، حيث تتقارب البيوت وتضيق الأزقة ويرق الحال، توقف عن السير ملتفتاً نحو الرجل متسائلاً:

«إلى أين؟!».

لم يرد الشيخ عليه، بل جال بعينيه في المكان ففعل السندباد ما فعل، وإذا عند كل ناصية من النواصي عامود نور خافت الضوء، يتحلق من حوله لفيف من رجال وشباب وفتيان وفتيات وكأنهم ـ كل في مكانه ـ يستعدون لشيء بعينه، لحظ السندباد أن البعض منهم كان يحمل في يده آلة موسيقية قال له العجوز إن اسمها الجيتار، حتى إذا سأله السندباد:

«وهل يعزف عليه هؤلاء الذين يحملونه في عرض الطريق؟!».

عاد العجوز إلى السير فسار السندباد إلى جواره: تمتم الرجل قائلاً:

«أحياناً يعزفون عليه منفردين، وأحياناً يصاحبون بعزفهم هؤلاء الذين يرفعون عقيرتهم بالشكوى!».

ظلا يخترقان الشوارع والدروب حتى وصلا إلى ما يشبه الميدان الصغير، تتوسط الميدان بضعة عواميد من النور وتتفرع منه روافد من صواري وأزقة يسودها الظلام، على ناصية كل درب أو زقاق عامود تجمع حوله البعض مثلما كان الأمر فيما رأى السندباد من قبل... قبل أن يفتح السندباد فمه بالسؤال أو الحديث، كانت أنغام قوية تصدر من جيتار يحمله شاب كثيف الشعر والحاجبين وسيم الوجه حليق الذقن... وكان، وهو يعزف فوق جيتاره، يطوف بالميدان متنقلاً من عامود إلى آخر..

وكأن عزفه إيذاناً بالصمت، فلقد حط السكون على الميدان كله... وإذا الجميع واقفين تحت الأعمدة يستمعون إلى العزف الذي كان يقوى أحياناً فيصبح مثل هدير موج صاخب، ويرق أحياناً فكأنه همس المحبين... أخذ السندباد ينصت في اهتمام وقد اجتذبه ذلك النغم الذي بدا له غريباً مختلفاً عن كل ما سمع من أنغام، فكأنه يصدر عن الأوتار كي يمس شغاف القلوب في عنفوانه وهمسه، في رقته وعنفه... إلتفت في لحظة نحو البحار الشيخ فما ألقى إليه هذا بالاً وما شعر بالتفاته، كان الرجل يبدو وكأنه قد ذاب تماماً في النغم الذي ملأ سماء المكان...

أخذ العزف يشتد ويشتد لحظة بعد أخرى، وكانت يد العازف تلعب على الأوتار في عنف وحنكة، بينما جسده كله، يتقلص في انقباض وانفراج مع كل نغمة، حتى إذا ما بلغ اللحن ذروة خال السندباد عندها أن الأوتار سوف تتمزق. فإذا به يتوقف، كي يهبط

الصمت على المكان لحظات لم تطل، وإذا صوت كأنه السيل يحط من أحد الأركان، وإذا شاب يتقدم من وسط الميدان مطلقاً عقيرته بغناء بدا للسندباد وكأنه صياح ملتاع أو دعوات معذب... وإذا صاحب الجيتار يعود إلى العزف مصاحباً ذلك المغني الذي كان الآن يجوب الميدان وكأنه في غنائه يوجه للناس حديثاً ذا شجون... وإذا العزف والصوت واحداً، وإذا الصمت هو لغة الناس جميعاً، وإذا الدروب والأزقة تلفظ أناس كانوا يتقدمون في خطى هامسة، وإذا الميدان يغص بمن فيه، وإذا الكل خاشعون كمن يرتلون في السر صلاة من نـوع غريب... حانت من السندباد نظرة إلى سيدة كانت تقف إلى جواره، فإذا بالدمع يفيض من عينيها وكأنه يأتي من نبع من حزن لا ينضب... إرتد ببصره نحو البحار الشيخ وفي عينيه سؤال يصرخ، فما كان من الشيخ إلا أن مال فوق أذنه هامساً:

«هذا ما كنت تسأل عنه!».

أدرك السندباد أن هذا هو الفادو الذي حدثته عنه نادلة المطعم، تذكر زابيا وتلك السيدة التي رآها في المطعم، ظلت عيناه معلقتين بوجه الشيخ الذي أردف:

«وهذا ما يجب أن تبحث عنه!».

انتفض السندباد وقد أخذه اللحن أخذاً فما أخذ عشرات الأسئلة التي ثارت في صدره... ابتسم الشيخ وقد أدرك حيرته فوضع يده فوق كتفه، وألصق شفتيه بأذنه، ثم استطرد:

«إنه الغناء الشعبي في بلاد البرتغال... هذا هـو عشق الناس وحبهم، وهو الرئة التي يتنفسون بها آلامهم!».

وإذا كان الصوت والعزف والنغم جميعاً قد أوصلت إلى السندباد لغة تغني عن السؤال والمعنى، فلقد اضطرب قلبه اضطراباً عنيفاً عندما

خرجت من وسط الجموع سيدة في ربيع العمر، ما إن رآهـا المغني ووقعت عليها عيناه، حتى هدأ صوته واستكان وتهـامس وكأنـه يفسح الطريق لموكب قادم... وما إن رآها السندباد ووقعت عليها عيناه هو الآخر، حتى انتفض في وقفته وارتجف ودق قلبـه في عنف أوجعه، وارتفعت من جميع أنحاد الميدان همهمات اختلطت وانداحت كموج يحمل الترقب والتأهب من مكان إلى مكان ومن فرد إلى فرد، وسرت الهمسات بين الناس:

«بياترز... بياترز!!».

والتفت السندباد نحو البحار الشيخ، فما وجد له أثراً.

ألم أمنعك من لقاء الغرباء؟!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه في شوق وقلق مستمعاً مصغياً بكل جوارحه: إن تلك كانت لحظة من اللحظات الباهرة في حياته ورحلاته جميعاً، فبالرغم من المرات التي كان قد التقى فيها بزابيا في صورها وأسمائها المتعددة... إلا أن الشك ظل يراوده في كل مرة، وفي كل مرة كانت ينسب إلى نفسه الغفلة والسعي وراء حلم مستحيل التحقيق أو وهم خلقه لنفسه وراح يسعى وراءه مشكلاً إياه في خياله حسبما يريد ويبغي... غير أنه في تلك المرة، لم يستطع إلا أن يشعر باليقين يملؤه، والسكينة تغزو جوارحه... وهو، عندما التفت نحو البحار الشيخ وقد كان يقف إلى جواره، إنما أراد أن يشهده على نفسه، على يقينه... لكن الشيخ كان قد اختفي، فأدرك السندباد أنه كان لا بد أن ينتظر هذا... فكما كانت زابيا دليلاً له في دروب المعرفة في كل مرة بقدر، فلقد كان الشيخ دليلاً له في الدرب الموصل إليها في كل مرة بقدر!!.

قال السندباد للفتى الذي كان يستمع إليه وقد تفتحت حواسه للحديث... إن سبب يقينه لم يكن في ظهور بياترز في تلك الباحة، فهو، عندما خرجت من وسط الناس، ورآها المغني والعازف، وعندما وقعت عليها عيناه، تذكر تلك النظرة التي تبادلاها في المطعم القائم على ضفة النهر المزين بأصداف البحر، كانت نظراتها حديثاً صريحاً لا

يحتاج إلى تفسير أو البحث عن معنى كان يعلن عن ذاته. . . لكنه، في كل مرة، كان يرجىء البحث عن المعنى إلى حيث اللقاء يفسر ما كان من حديث العيون. . . فلربما أغنت النظرة عن اللقاء!.

تقدمت بياترز من وسط الحلبة في خطى وئيدة كملكة يحمل رأسها تاجاً من فن رفيع تعرف قيمته كما يقدره الآخرون، فإذا بالسندباد ـ وقد رآها ـ يزاحم الواقفين ويدفع بنفسه إلى الأمام حتى يملأ منها عينيه. . . ومع تقدم بياترز في الباحة، كان المغني يتراجع منسحباً بجسده كما انسحب بصوته، وإذا صاحب الجيتار يتلاعب بالأوتار في رقة تناسقت مع الخطى الشامخة، وإذا الصمت يحط على الجميع فكأنهم في صلاة خاشعة. . . عندما وصلت إلى منتصف الباحة مدت يدها إلى خصلة شعرها فحلتها، وإذا الشعر ينساب كأمواج من ليل إلى كتفيها وما بعد الكتفين، يحيط بذراعيها وظهرها شال في لون اللهب المتقد، فوق جسدها ينسدل رداء أسود اللون تزينه زهور صفراء كانت تتماوج مع حركة جسدها كطيور ترفرف من حولها. . . حتى إذا بلغ الصمت في المكان أعمق أغواره، أومأت إلى العازف الذي لبت أصابعه النداء الخفي، فإذا هي تجري فوق الأوتار جريان الماء في جدول يفيض بالعذوبة. . . تماوج العزف في الأسماع ممهداً الطريق للصوت القادم وسط جلال يحف به الترقب، حتى إذا ما انداح صوتها هامساً في أنين شاكٍ، اهتزت له الأفئدة ورجفت، فلم يكن الصوت كالأصوات، ولم يكن النغم كالأنغام. . . بل كان مزيجاً من تراتيل سبحت في عنان الفضاء في يسر المحمول فوق محفة تسبح في الهواء بلا أجنحة، حتى إذا وصل تدفق الصوت مداه، بدا وكأن صخوراً تحط من فوق طود بالغ الشموخ يخترق القلوب قبل الآذان، يواكب الصوت عزف كأنه تراتيل ملائكة غير منظورة. . . كان السندباد مأخوذاً بالصوت مخدراً بإحساس كأنه اللذة خالصة، والهوى منزهاً، والحب نقياً، والعشق صلاة!.

حمله الصوت إلى حيث المراعي البعيدة على سفوح الجبال الشامخة، كان صوتاً وصدى معاً، كما كانت هي صورة تتحقق وروح ترفرف. . . كانت بياترز تسير في المكان شامخة الرأس والقامة والهامة، تخطو في ثقة من يعرف قدر نفسه، وخيلاء من يملك من كنوز الخالق ما هو أمين عليه، يصاحبها في خطوها عازف الجيتار كظل لا يخفي ظليله. . . وإذا دموع الناس تتحدر من العيون، وأنفاسهم تتردد في الصدور لاهثة. . . وصمتهم يحف بها من كل جانب. . . حتى إذا ما وصلت إليه توقفت عن الخطو وإن لم تتوقف عن الغناء، سددت إليه نظراتها فاخترقت عينيه اختراقاً، وكان اتصال الحديث من القلب إلى القلب!!.

كانت الآن أمامه، ترفع عقيرتها بغناء يرجه رجاً، فإذا به يستجيب للإحساس رغم جهله بالمعنى، وإذا عيناه تدمعان فتترقرق صورة وجهها من خلف دمعه كالحلم الرفيق، وإذا دمعها يصعد إلى عينيها، يترقرق فوق الجفون كحبات من ماس نادر. . . وإذا هي، وقد اختتمت عيناها الحديث، تمد له يدها، وإذا هي تأخذه إلى حيث راحت تجوب الباحة من جديد. . . كان الصوت الآن يترنم بكلمات تحكي مأساة الناس، وسرت ذبذباته من يدها إلى قلبه، حتى إذا وصل المعنى مع الصوت والنغم إلى ذروة، أحس السندباد وكأن قلبه يتمزق في صدره إرباً، وإذا رغبة عارمة في البكاء تجتاحه، وإذا دمعه يسيل من عينيه مدراراً، وإذا هي تنظر إليه وقد شارفت على النهاية باسمة، وإذا نظراتها تبثانه سعادة بلا حدود، ومع تكسر الأهداب أمام دموعه المتوسلة، تكسر الصوت ثم إستنام في رفق، وإذا العزف هامس هامس، وإذا الصمت يرين!

* * *

هتف الفتى الجالس أمام السندباد وقد انتابه مع الجزع دهشة عارمة:

«سندباد... إنك تبكي!».

كان دمع السندباد يسيل من عينيه متخللاً شعيرات ذقنه التي خطها شيب الكهولة، فتبسم وقال ناهضاً:

«لقد حانت صلاة العشاء فلم لا نؤديها؟!».

في خشوع لزم الفتى الصمت وهو يرقب السندباد وقد نهض آخذاً طريقه نحو الغدير كي يتوضأ، فبدا له في ضوء القمر الذي كان قد استدار بدراً باهر المحيا، وكأنه قدام من خيال يسري في الهواء ولا يسير فوق الأرض... عند الغدير غسل السندباد وجهه، وارتوى برشفة من المياه العذبة أراد أن يطفىء بها لهيب الذكريات... ثم توضأ وعاد إلى الفتى فأقام الصلاة وأداها، حتى إذا ما انتهى من الفرض أعقبه بركعتي الشفع وركعة الوتر، ثم رفع كفيه نحو السماء داعياً:

«أللهم أسبغ علينا من رحمتك قدرة على احتمال قدرك، أللهم باعد بيننا وبين الوهم ولا تحرمنا نعمة الخيال، أللهم إني أُبت إليك فأحسن لقائي وامنحني نعمة نظرتك إليّ، أللهم جنبني مزالق الحديث، وإمنحني القدرة على مواصلته إلى حيث تشاء... أللهم لك الحمد، حمداً طيباً طاهراً مباركاً فيه... حمداً يرضيك يا كريم!».

إلى يمين السندباد كان الفتى راكعاً رافعاً كفيه نحو السماء في استجداء العبد للرب وقد فاضت دموعه، حتى إذا التفت السندباد نحوه ورأى دمعه تبسم، ثم نهض إلى الشجرة فاقتطف منها ثمرة قدمها للفتى، وأخرى لنفسه... ثم أسند ظهره إلى الجذع جالساً... وكانت نظرته الآن قد صفت وداخلته سكينة صفت لها نفسه، وكان الفتى قد إتخذ مكانه أمامه معلقاً عينيه بمحياه وقد استشعر طراوة في الجو أفعمته براحة ملأ لها صدره بالهواء... وعندما بدأ السندباد حديثه من جديد، كان صوته عميقاً مغموساً في الشوق إلى ما كان... قال: إن بياترز بعدما انتهت من الغناء، أحاطت بها جموع الناس الذين ملأوا الباحة وهم

يصفقون، ولقد اشتد التزاحم من حولها حتى أطلقت يده من يدهـا، وامتدت إليه نظراتها باسمة فتلقاها بعينيه في لهفة، اختفت وسط الناس الذين حملوها حملاً إلى مركبتها الفاخرة التي كانت في الإنتظار، وإذا هي داخل المركبة تلوح للناس من خلف زجاجها تاركة إياه دون كلمة، فما أحس بألم لفراق، فقد كان موقناً أشد ما يكون اليقين، إنه ليس فراقاً بل افتراقاً إلى حين!!.

* * *

«هل فهمت من الغناء شيئاً يا سندباد؟!».

«أبداً يا عماه... ما فهمت منه كلمة!».

فلم دمعت عيناك وسالت دموعك؟!».

زفر السندباد زفرة حارة، كان يجلس في مقصورته بالسفينة وقد عاد ليجد البحار الشيخ قد سبقه إليها وجلس في انتظاره قلقاً... طال الوقت ولم يجد السندباد جواباً على سؤال الرجل الذي عاد يلح:

«لم دمعت عيناك؟!».

تاهت عينا السندباد:

«كأني فهمت شكواها!».

«هل كانت تشكو أم تغني؟!».

«كانت تغني شاكية!».

ابتسم البحار الشيخ وراح يحشو غليونه بالتبغ، عاد السندباد للحديث قائلاً:

«غير أني لم أعرف سبب الشكوى!».

أشعل الشيخ غليونه ومدد ساقيه في استرخاء وهو يقول:

«اعلم يا بني أن ما سمعته من غناء هو ما يطلقون عليه إسم «الفادو»... وهو الغناء الشعبي لهؤلاء الناس... يرتجل المغني كلماته فيه عفو الخاطر دون تحضير، فهو شاعر وهو مغني كما أنه واضع اللحن والنغم. يصاحبه عازف الجيتار مطيعاً في دروب الألحان بخبرة إستمدها من مواكبة المطربين... ولقد عرف الناس هذا النوع من الغناء في هذه البلاد منذ أمد طويل، غير أنهم، تحت حكم واليهم المستبد، قد وجدوا فيه الخلاص... فهو والي قوي قاسي القلب، حاول البعض منهم أن يثور عليه فكان نصيبه السجن أو الموت... لكن الشعوب، أعزك الله، لا تعوزها الحيلة مهما قويت شكيمة الولاة واشتدت قبضتهم، وهكذا وجد أهل البلاد في هذا النوع من الفن خلاصاً من آلامهم، يبثون اللحن شكواهم... وهم، في كل ليلة، عند كل ناصية، يجأرون بالشكوى - كما رأيت - غناء ونغماً ودمعاً يسيل!!».

كان السندباد ينصت للبحار الشيخ في قلق من يريد من الحديث المزيد، ولقد أدرك الرجل ما كان يجول في خاطره فعاد إلى الحديث بعد لحظات صمت، قال: إن ليباترز قصة يتناقلها الناس في همس، بعضهم يؤكدها والبعض الآخر ينفيها لكن الحقيقة ظلت دائماً حبيسة صدر هذه السيدة التي برعت في هذا الهدف من الغناء حتى طبقت شهرتها الآفاق، وأصبحت تغني في أرقى الأماكن ويسعى إليها الحكام والوزراء وذوو الجاه والسلطان، ولكن... وبالرغم من كل ما تعيش فيه من عز وأبهة، فلا زال الحزن والإحساس بالقهر يطلق عقيرتها بأعذب الأشعار والألحان، تعيش في قصرها المنيف وحيدة، لا يؤنس وحدتها إلا ابنتها الصغيرة التي أوقفت عليها حياتها، وأصبحت عزاؤها وملاذها وحبها العظيم!.

«فما هي قصتها أكرمك الله!».

هكذا سأل السندباد، فنهض البحار الشيخ باسماً متمتماً:

«هكذا الشباب دائماً، في عجلة من أمره!».

هتف به السندباد محتجاً:

«ألا تروي عطشي للمعرفة؟!».

«فلم لا تسألها أنت!».

«كيف أسألها وقد غادرت الباحة وتركتني!».

«ألم تمد إليك يدها؟!»

«بلى!».

فلم تركت اليد وقد جاءتك ساعية؟!».

«وقف الناس حائلاً بيني وبينها!».

«فلتنتظر إذن حتى تأذن لك مرة أخرى!!».

«ومتى تأذن بالله عليك؟!».

«هل عرفت أن السفينة سوف تبحر في الصباح؟!».

هتف السندباد في جزع:

«لكنهم قالوا إنها سوف تبقى في هذه الميناء لأيام!».

ليس للبحر موعداً، وليس للسفينة سوى الإبحار إذا ما طلب منها ذلك!».

«وما العمل يا عماه... ماذا أفعل؟!».

«إفعل ما يجب عليك أن تفعله!».

قال الرجل هذا، ثم مضى دون كلمة أخرى!.

* * *

غادر السندباد السفينة عائداً إلى المدينة وكان الليل قد قارب على الإنتصاف، راح يضرب في الشوارع وكانت شبه مقفرة على غير هدى وقد ملأ نفسه قلق ألا يلتقي مع بياترز. . . ظل يضرب في الشـوارع ويضرب تاركاً نفسه لقدميه تحملانه إلى حيث لا يدري. . . إبتعد عن منـطقة الميناء حيث كان البحـارة هناك يـرتادون الحـانات ويـطلقون عقائرهم بالغناء. . . ولقد انتصف الليل وعبر الزمن يوماً إلى يوم آخر فمـا وهنت قواه ومـا كلت قدمـاه. حتى إذا كانت لحـظة توقف فيهـا مشدوهاً، وجد نفسه أمام محل من تلك المحلات الفاخرة ذات الأبواب الزجاجية والأرض المفروشة بالبسط. . . من الداخل كـان يصل إليـه صوت غناء وعزف جيتار، خفق قلبه عندما وقعت عيناه على مجموعة من الصور الملونة لشباب وفتيات تحيط بصورة كبيرة لضالته المنشودة كالكواكب تحيط بنجم بـاهر الضـوء. . . كانت صـورة بياتـرز تتوسط الصـور جميعاً، تـطل من عينيها نـظرة تدعـو إلى دخول المكـان فما تـردد. . . وجد نفسـه أمام درج هبط بـه إلى سـرداب تحت مستـوى الأرض، عند نهاية السرداب استقبله رجل ذو قامة فارهة وملابس أنيقة ابتدره بالتحية فرد عليه السندباد بمثلها. . . ما لبث الرجل أن اقتاده إلى حيث وقف السندباد مشدوهاً!.

كان المكان أمامه تحت الأرض، يمثل شوارع تتقاطع في كـل اتجاه. . . في كل شارع محلات رصت فيها الموائد وقد جلس إليها الرواد من السيدات والرجال، عند ناصية كل تقاطع، عـامود نـور هو صورة طبق الأصل من تلك الأعمدة التي رآها في ذلك الحي الفقير الذي غنت فيه بياترز قبل ساعات، تحت واحد من هذه الأعمدة كان يقف مطرب يطلق عقيـرته بـالغناء وهـو يعزف على الجيتـار. . . قاده الرجل الطويل الأنيق إلى حيث مائدة في زاوية من المكان جلس إليها وهو يجول ببصره هنا وهناك فكأنه في حي من أحياء لشبونه. . . كان كل شيء حتى النـوافذ في الأدوار العليـا كما كـانت في ذلك الحي. . .

سرعان ما اختتم المغني أغنيته فصفق الحاضرون استحساناً، شعر السندباد أنه في حلم فراح يستحلب ما حوله في نشوة وسعادة، جف حلقه فهم بأن يطلب مشروباً وإذا النادل يأتي إليه مهرولاً وفي يده زجاجة يشي منظرها بما تحويه من شراب فاخر. . . وضع النادل الزجاجة أمامه في الوقت الذي جاءت فيه مساعدة بكأس وضعته أمامه. انحنى له الرجل تحية فرد السندباد تحيته وهو يقول:

«إني لم أطلب شراباً بعد!».

قال الرجل في احترام شديد وبصوت هامس:

«إن الفاديشتا تهديك التحية وترجو منك أن تقبل الليلة دعوتها!».

كان اسم «الفاديشتا» غريباً عليه فسأل في دهشة:

«أية فاديشتا؟!».

«السيدة بياترز يا سيدي!».

اتسعت عينا السندباد دهشة فأردف الرجل بصوته الخافت أن إسم الفاديشتا يطلق على كل من تغني أغنيات الفادو، وفي مثل هذا المحل، يطلق اسم الفاديشتا على أكثرهن شهرة وأعظمهن صوتاً وأطولهن باعاً في هذا المضمار. . . شكره السندباد لكنه تساءل:

«ما هذا الشراب أعزك الله؟!».

«إنه عصير الأناناس المحبب إلى الناس في بلادنا المستورد من جزر الأزورس!».

قال الرجل هذا وهو يصب من الزجاجة كأساً للسندباد، هم السندباد بسؤاله لكنه نظر إلى شفتيه فوجدهما مطبقتان فكأنه أنهى كل ما لديه من قول فتراجع عن السؤال. . . مع الإحساس الغامر بالسعادة انتبه السندباد إلى ما قصدت بياترز، فها هو الزمن يدور دورته الأولى في

عالمه الذي اختار الخوض فيه، وإذا كانت الرحلة قد بدأت في جزر الأزورس عندما إلتقت به زابيا لأول مرة بلا إسم، وطافت معه موانىء الدنيا، فها هي تحمله مرة أخرى إلى نفس الدولة التي تنتمي إليها تلك الجزر. . . مضى الرجل تاركاً السندباد وقد استغرق في التفكير، رشف من الكأس رشفة فتذكر ثمرة الأناناس التي اقتسمتها معه فتاة الأزورس وهما في الطريق إلى قمة الجبل فكأنها تذكره أنها برت بوعدها وأنها كانت دائماً هناك. . . قبل أن يسترسل في التفكير علت في الجو أنغام جيتار صادرة من مكان خفي، خف لغط الرواد وتهادت أحاديثهم والتوت كل الأعناق نحو ناحية من نواحي الشارع المنحوت في قلب الأرض، سرعان ما هلّ عازف الجيتار من شارع جانبي وقد انهمك في عزفه بعنف كان يتزايد لحظة بعد أخرى وكأنه يطلب من الناس التزام الصمت، توقف العازف إلى جوار أحد الأعمدة، ارتفع النغم وصعد إلى ذروة سرعان ما انحدر بعدها إلى سفح الأنغام حتى قارب العزف همس المحبين، من قلب الهمس خرج صوت بياترز قبل أن تشرق على الجميع بوجهها الوضاء وكانت تهبط الدرج في واحد من تلك البيوت الصغيرة. . . غادرت الباب وعبرت الشارع حتى وقفت أمام السندباد الذي تجمدت أطرافه. من الهمس إلى الجهر إلى عقيرة تنطلق بالشدو في جبروت منشدة إنشاداً يبعث بالنشوة إلى الأوصال مرسلاً الدمع إلى العيون. . . وإذا الصمت يرين على الجميع، وإذا الصوت هو الآمر الناهي، والكل، الكل مطيع الآذان!.

* * *

قال السندباد للفتى الجالس أمامه محبوس الأنفاس أن بياترز صالت وجالت، راحت وجاءت، أنشدت وغنت وألهبت المشاعر في تلك الليلة حتى ظل الناس يصفقون ويستعيدون غناءها ويستزيدون منه، حتى إذا ما انتهت، توجهت إليه وقد كان التصفيق يدوي لا يزال، ما إن اقتربت منه حتى صبت عيناها في عينيه نظرات كأنها الروح تسري من

جسد إلى جسد، نهض السندباد لاستقبالها مقدماً لها مقعداً. . . حتى إذا ما خف التصفيق سألته:

«لِمَ تأخرت كل هذا الوقت؟!».

«لا زالت قدرتي على الإستيعاب متواضعة!!».

«أوَلم تصلك رسالتي في الباحة؟!».

كان العتاب صارماً فقال السندباد:

«سيدتي. . . إنني . . . . !».

قبل أن يكمل قاطعته:

«لم تتردد كلما حانت الفرصة كي تتقدم خطوة!».

«ربما كان الخوف من المجهول!».

«أو هو الخوف من مواجهة الحقيقة؟!».

«ألا تغفري لمن يجهل، عدم قدرته على استيعاب حديث النظرات!».

كان في حديث السندباد إعتذاراً فابتسمت، جاء النادل وصب لها من الزجاجة كأساً من عصير، قالت بعد أن رطبت شفتيها برشفة:

«سوف ترحل سفينتك بعد ساعات!».

«كدت أفقد عقلي خوفاً من تعذر اللقاء بك!».

رفعت حاجبيها دهشة وهي تسأله:

«أوَلم تؤمن؟!».

هتف ملتاعاً:

«بلى. . . ولكن متى يطمئن قلبي؟!!».

لاحت خيوط الفجر في الأفق وكانت بياترز تسير إلى جوار السندباد وقد تأبطت ذراعه بجوار الشاطىء... كانا قد تناولا طعام العشاء وقد انصبت عليهما كل العيون وسرى الهمس من حولهما وأحاطت به نظرات الحسد... غادرا المكان فصرفت سائق مركبتها وراحا يضربان في شوارع المدينة... قال السندباد فيما قال عن تلك الليلة للفتى الجالس أمامه أنه حاول بعد رحيل السفينة أن يتذكر كيف دار الحديث بينهما عبثاً... قال إنه في لحظة أراد أن يفيق فيها من نشوة اللقاء كي ينتبه فتوقف مواجهاً إياها. سألته في حنان:

«ماذا بك يا سندباد؟!».

«الحزن في عينيك يفيض، والأسى في حديثك يغرقني في بحور الشقاء، فلماذا؟!».

«أوَليس هناك ما يبعث على الحزن في هذا العالم!».

نعم... هناك ما يبعث على الحزن حقاً... ولكن هنالك أيضاً ما يبعث على السعادة!».

«مثل؟!».

هكذا سألته، ففرد ذراعيه وإستقبل المحيط ودار حول نفسه كالمنتشي وقال:

«مثل هذا الكون من حولنا... مثل هذا الجمال الأخاذ الذي حباك الله به... مثل... مثل هذا الحب الذي يحيط بك أينما حللت، مثل... مثل هذا الصوت الجبلي الأخاذ الذي يغزو القلوب قبل الآذان... مثل، مثل تلك الطفلة في عمر زهرة تتفتح التي شاهدتها معك في الصباح!».

ما إن أتى ذكر الطفلة على لسان السندباد حتى تفجر الحزن في عيني بياترز بركاناً، هتف السندباد:

«هل أخطأت في حديثي؟!».

قبل أن تفتح بياترز فمها بكلمة، إندفعت مركبة فاخرة جاءت تزأر من بعيد وهي تنهب الطريق نهباً حتى إذا حاذتهما، توقف، وصرخت عجلاتها محتكة بالأرض. . . وإذا باب المركبة يفتح، وإذا شاب طويل عريض أنيق، يغادرها ونظرات الشر تنطلق من عينيه.

انتفضت بياترز ملتفتة نحو الشاب، تراجعت خطوة ملتصقة بالسندباد كمن تريد الإحتماء به، هتفت في الشاب:

«ريكاردو!».

«ألم أمنعك من لقاء الغرباء؟!».

هكذا زأر الشاب غاضباً، فسقط قلب السندباد بين ضلوعه.

إلى لقاء قد لا يحدث!

قال السندباد للفتى الجالس أمامه مستمعاً في ترقب، أن سبب وجله واضطرابه عندما صاح ذلك الشاب في بيارتز صيحته تلك، لم يكن خوفه من الشاب أو من غضبه الذي بدا جامحاً. . . ولكن سبب اضطرابه أنه تذكر صيحة مماثلة صدرت عن شاب آخر في مكان آخر يبعد عن هذا المكان بآلاف الأميال، صيحة كانت تحمل نفس الكلمات أطلقها شاب في زقاق من أزقة بومباي. . . وإذا كانت بياترز قد دعته في تلك الليلة إلى قارورة من شراب الأناناس، فلقد قدمت له فتاة الأزورس ثمرة أناناس قبل أعوام لا يدري عددها. . . فهل كانت الدورة تكتمل فيما بين فتاة الأزورس وبياترز، وما بين هذا الشاب وذاك؟!.

راح السندباد يتساءل إن كان هذا حلماً أم أنه علم عليه أن يتقبله، هل هو اختلاق وجدان مريض يريد أن يستخرج من باطن الواقع خيالاً يتلاءم مع رغبته في التحليق إلى حيث لا يدري. . . أم هو واقع عليه أن يتفكر فيه وأن يمحصه وهذا أضعف الإيمان؟!.

قال السندباد أن زابيا إن كانت قد فرت من مطارديها إلى حيث قادته إلى ذلك الناسك في بومباي، فإن بياترز لم تفر ولم تتراجع بل اشتبكت مع ذلك الشاب الذي كان ينتفض أمامها بغضب جامح في معركة بدت غريبة كل الغرابة!.

في البداية أخذت بياترز تهدهد الشاب وكأنها تهدهد طفلاً

وتسترضيه، لكنها كلما استمرت في رقتها إستمر هو في غضبه وثورته، حتى إذا ما كاد الزمام أن يفلت، تحولت إلى لبوءة مفترسة كشرت له عن أنيابها ومخالبها... وإذا صوتها زئير يجمع المارة من حولهما، وإذا عيناها السوداوان العميقتا الغور تنفثان غضباً دونه حمم بركان ثائر... وإذا ثورة الشاب تهدأ، وإذا هو يتحول من الغضب إلى الرقة، ومن الثورة إلى الحلم، ومن الهجوم إلى التوسل!.

راح السندباد يرقب ما يحدث أمامه في دهشة، كانا يتعاركان بلغة لم يفهم منها كلمة وإن كانت الألفاظ مع الصيحات والحركات تشي وتنم، حتى إذا كانت لحظة، رأى السندباد فيها دموع الشاب تتحدر من عينيه وقد تحول توسله إلى استجداء... وإذا به يعدل عن الحديث بتلك اللغة البرتغالية إلى لغة يفهمها السندباد وكأنه يشهده على ظلم حاق به، أو... أو كأنه يطلب منه العون.

كان بعض المارة قد تجمعوا عندما اشتد صياحهما واحتدم. وكان الواحد منهم إذا ما تعرف على بياترز أبدى استعداده للمعاونة أو المساعدة... لكنهم، عندما طلبت منهم بياترز أن ينصرفوا، إنصرفوا وكأنهم لا يملكون حيال ما تطلبه منهم سوى الطاعة... حتى ذلك الشرطي الذي جاء مهرولاً، ما إن وقعت عيناه عليها، حتى مس طرف قبعته احتراماً وهو يسأل بياترز إن كانت في حاجة إلى معونته فقالت:

«شكراً أيها الضابط، إنما هو حوار بين صديقين تقطعت بينهما الأسباب!».

هدأت الخواطر قليلاً وهبت نسمة رقيقة رطبت حرارة الغضب، فقالت بياترز محدثة ذلك الشاب:

«ريكاردو... متى تكف عن هذا؟!».

أجاب هذا متوسلاً:

«بياترز. . . أنت تعلمين كم أحبك!».

«ألم نتفق ألا نخوض في هذا الأمر مرة أخرى؟!».

«أليس من حقي أن أرى ابنتي ولو مرة في كل شهر؟!».

«كيف يا عزيزي وقد أنكرتها أمام الملأ وادعيت أمام القاضي أني خدعتك!».

«بياترز. . . إن الـ . . . .».

«هل نسيت أن دمائي ملوثة، وأن ماريا تحمل في عروقها نفس الدماء؟!».

«لم تكن هذه رغبتي!».

«ولم تكن رغبتي أيضاً!».

«لقد ضغطوا علي!».

«وضغطوا علي أنا الأخرى لكني لم أطيعهم!».

سقط ذراعا ريكاردو إلى جواره، نكس رأسه، رماها بنظرة متوسلة واجهتها بنظرة جامدة لا تحيد. . . مضت لحظات قبل أن يستدير ريكاردو عائداً إلى مركبته، واختفى فيها واختفى بها!!.

«سيدتي. . . هل لي أن أسأل؟!».

إلتفتت بياترز نحو السندباد في حدة، رمته عيناها السوداوان بنظرة ارتجفت لها أوصاله!.

كانت سيارة ريكاردو قد اختفت، وكان هي قد تأبطت ذراعه وراحا يخطوان في الطريق وقد لفهما الصمت تماماً، كان صدر السندباد يصطرع بعشرات الأسئلة، حتى إذا ما سأل سؤاله هذا، ظلت تحدجه بتلك النظرة الصارمة. عندها هم بالحديث كي يوضح مراده سألته:

«ألا زال الشك يداعبك؟!».

«ليس الأمر شكاً!».

«أوَلم تدرك معنى ما رأيت؟!».

«نعم ولكن . . . .».

سحبت يدها من ذراعه وواجهته معاتبة!.

«لِم تريد للحقيقة أن تأتيك فوق طبق من فضة؟!».

ما إن فتح الباب حتى وجد السندباد نفسه في بهو متسع تناثر فيه أثاث من ذلك النوع الذي لا يوجد إلا في القصور. . . تنحى الخادم موسعاً الطريق لبياترز وكان ثمة سيدة شامخة الرأس مهيبة الطلعة تقف في صدر المكان وقد بدا عليها القلق. . . تبادلت بياترز معها كلمات سرعان ما انسحبت بعدها، وقادت السندباد إلى ركن من البهو بدا وكأنه عالم قائم بذاته. . . سألت السندباد إن كان في حاجة إلى شيء يتبلغ به مع شراب ساخن وكان هذا هو كل مراده، ألقت بأوامرها إلى الخادم الذي انصرف مطيعاً فالتفتت بياترز نحوه قائلة:

«عليك أن تفتح أذنيك جيداً يا سندباد، فقد لا نلتقي قبل مضي وقت طويل!».

اعتدل السندباد في جلسته فإذا هي تضيف:

«وقد لا نلتقي أبداً!».

خفق قلب السندباد وهم بالسؤال أو الإحتجاج فإذا هي تقول:

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!».

هتف السندباد دهشاً:

«بياترز!».

«إذا أردت مواصلة الصعود فعليك ببذل الجهد والتفكر في الأمر!».

هل الخادم من الداخل يدفع أمامه مائدة صغيرة ذات عجلات وقد توسطتها ثمرة كبيرة من الأناناس، وبجوارها كانت آنية الشراب الساخن والأقداح... سقط قلب السندباد بين ضلوعه ونظر إلى بياترز فإذا هي تستقبل المائدة دون أن تلقي إليه بالاً، شكرت الخادم الذي إنصرف وراحت تقطع ثمرة الأناناس وتقدم له منها... قبل أن يرتد إليه وعيه كانت تقول:

«إعلم يا سندباد أني واحدة من ضحايا هذا العصر الذي صنعه الإنسان ذو البشرة البيضاء... ومنذ بدأ أهل هذه القارة في إستعمار بلاد الله لنهب خيراتها، كان من نصيب بلاد الهند التي إستولى عليها الإنجليز، أن يستعمر البرتغاليون قطعة من أرضها على الشاطىء الغربي إسمها «جوا»!».

قال السندباد:

«لقد علمت أنها تقع إلى الجنوب من بومباي!».

ما إن نطق السندباد بإسم بومباي حتى التمعت في عيني بياترز نظرة نفذت إلى قلبه مباشرة، قال وقد كان صوته مرتجفاً:

«حيث التقيت بزابيا!».

«فهل وعيت ما شاهدت واستوعبت ما سمعت؟!».

في توسل قال السندباد:

«ألا تكفين عن لومي وتقريعي؟!».

عادت بياترز إلى الحديث قائلة أن أباها كان من أهالي جوا، وكان اسمه راجا. وكان يملك مزرعة هائلة للتوابل، فهو في قومه كان

أميراً ورئيساً وذا شأن وهيبة . . . وكان من أهل البرتغال تاجر طيب القلب رقيق النفس يعرف الله ويؤدي ما عليه إليه، وكان اسمه «الفريدو». . . توثقت عرى الصداقة بين راجا وألفريدو الذي كان يؤمن ألا فرق بين برتغالي وهندي إلا بتقواه، حتى إذا كان عام جاء ألفريدو فيه إلى جوا ومعه عائلته. . . وكان له ابنة إسمها «ماريا» في عمر الزواج، ما إن رأت راجا حتى وقعت في غرامه كما وقع راجا في غرامها، وقضى الحبيبان أياماً إستحلبا فيها طعم السعادة استحلاباً، حتى إذا آن أوان العودة إلى الوطن سألت ماريا حبيبها عما هما فاعلان، فقال والحزن يعتصر قلبه:

«ليس أمامنا سوى الرضا بالواقع!».

«ما الذي تعنيه بالله عليك يا راجا؟!».

«لن يوافق أبوك على زواجنا!».

«ولم؟!».

«لأني هندي يا ماريا!».

«لكن أبي رجل تقي يعرف الله ويعرف ألا فرق بين هندي وبرتغالي إلا بالتقوى!».

ولقد كانت ماريا على حق فيما قال، فما إن فاتحا الأب بعزمهما على الزواج حتى قال:

«هل أنت على استعداد لمواجهة الناس في لشبونه يا راجا؟!».

«ولم لا أبقى في بلادي وتبقى معي زوجتي؟!».

سأل الأب إبنته:

«هل أنت على استعداد للبقاء هنا يا حبيبتي؟!».

«ليست العبرة بالمكان يا أبتاه، إنما العبرة بالإنسان!».

وهكذا تم الزواج، وترك ألفريدو ابنته في كنف زوجها، وعاش

العروسان في سعادة كانت ثمرتها طفلة اختارا لها إسمين.

هتف السندباد متعجباً:

«إسمين لطفلة واحدة؟!».

ضحكت بياترز ضحكة خفيفة وهي تقول:

«نعم يا سندباد. . . إسم برتغالي وآخر هندي!».

«فما هماالإسمين جزاك الله عني خيراً!».

«أما الإسم البرتغالي فهو بياترز!».

«والإسم الهندي؟!».

«زابيا!!».

إنتفض السندباد في مكانه وأرتج عليه وهو يهتف:

«هـا هي الشمس تشـرق فهـل من منكـر للضـوء الـذي يبهـر العيون؟!».

نهضت بياترز إلى حيث الشرفة تطل منها على حديقتها الصغيرة وكانت مليئة بالأشجار الإستوائية التي يندر وجودها في مثل هذه البلاد، ملأ السندباد العجب لكنه تحاشى السؤال وكان يشعر أنه في محراب، إستطردت بياترز في حديثها فقالت أنها عندما بلغت عامها الأول أصيب والدها بمرض من أمراض البلاد الحارة لم يمهله طويلاً فمات. . . فما كان من أمها إلا أن حملتها وأبحرت عـائدة إلى بـلاد البرتغـال حيث استقبلها أبوها بترحاب. . . استغرقت الرحلة من جوا إلى لشبونه نيفاً وثلاث أسابيع، ما إن وصلت الأم حتى مرضت هي الأخرى، وكأنها كانت تتعجل اللحاق بحبيبها الذي اختطفه الموت. فلقد توفيت تاركة بياترز الصغيرة في كنف جدها.

قال السندباد:

«كأني أقرأ قصة من تلك القصص التي اشتهرت في القرن الماضي!».

ردت عليه بياترز أن الأمر كذلك فعلاً، ولقد شبت بياترز في حضانة جدها وفي رعاية تلك المربية التي شاهدها السندباد لحظة دخولهما البيت... كانت طفلة مدللة ثرية، أضيفت إلى ثروتها التي ورثتها عن أبيها ثروة جدها الذي أوصى لها بكل ما يملك، حتى إذا بلغت سن الزواج، كانت قد أصبحت محط أنظار شباب لشبونه من الأغنياء وأبناء البيوتات والنبلاء وأحفاد الملوك والأمراء... وكان لا بد وأن تقع الفتاة الجميلة في الحب، فاختارت ريكاردو... وإذ آنس جدها منها ميلاً إليه وحياله، وافق على إتمام الزواج... وكان حفل زفافهما حديث لشبونة لأسابيع لم تطل، فكأن جدها كان في انتظار زواجها كي يلحق بابنته، فلقد توفي بعد أسابيع قليلة من الزواج، وكانت بياترز حامل في طفلها الأول.

لاذت بياترز بالصمت، وبدت وكأنها تقاوم دمعاً سخيناً كاد يغلبها على أمرها... كانت خيوط الفجر تطل عليهما من فوق هامات الأشجار الباسقة، ولقد طال صمتها فلم ينبس السندباد بكلمة... وعندما عادت إلى الحديث كان صوتها وكأنه رنين حديد يطرق حديداً، قالت أنها لشهور طويلة عاشت في وهم حب أحاطها به ريكاردو... ولما لم تكن تعرف شيئاً في شؤون المال والأعمال فلقد أعطته كل شيء يتصرف فيه كيفما شاء، حتى إذا اقترب موعد الوضع أحست منه جفاء كان يزداد يوماً بعد يوم. وكلما اقتربت منه وجدت صداً لم تعهده فيه، وبدأ ريكاردون يتغيب عن البيت ليال راحت تتعدد وتطول. حتى إذا ما وضعت إبنتها ماريا، فوجئت بما لم يكن في حسبانها!.

أنكر ريكاردو أبوته للطفلة!.

وجنت بياترز. حاولت أن تعرف ماذا حدث وماذا ألم بحبيبها

وزوجها، فإذا هي أمام كارثة لم تخطر لها على بال، إكتشفت أنها لا تملك شيئاً بعد أن باعت كل ما تملك لريكاردو، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه رفع الأمر إلى القضاء متهماً إياها بأنها خدعته ولم تخبره أنها من أب هندي، وأنها مخلطة الدماء وليست بيضاء خالصة البياض!.

وكانت فضيحة اهتزت لها البلاد من أقصاها إلى أقصاها، واهتزت لها بياترز حتى كادت أن تفقد حياتها لولا مربيتها تلك التي حملتها مع طفلتها إلى حيث كانت تعيش مع أهلها في حي من الأحياء الشعبية... بحثت بياترز عن الأصدقاء فما وجدت أصدقاء، وعن الأهل ولم يكن لها أهلاً!.

قال السندباد للفتى الجالس أمامه لاهث الأنفاس ذاهلاً، أنه كان في تلك اللحظات يستمع إلى بياترز وهو يرتجف، وأنها، عندما نهضت من جلستها كانت تترنح فتأبطت ذراعه... هبطا من الشرفة إلى الحديقة معاً، لفهما الصمت مع شقشقة عصافير الصباح للحظات سألته بعدها:

«ألا تريد أن تسأل؟!».

تصاعد الدمع إلى عيني السندباد وهو يقول ممتناً:

«أريد الاستزادة!».

«ولم؟!».

«كي أتعلم سيدتي... كي أتعلم!».

استدارت بياترز نحوه بكليتها، كان وجهها الآن يشرق بابتسامة راضية، كان ضوء النهار وليداً يغمر الكون غمراً حنوناً، فبدت له كملاك هبط على الأرض. مدت يديها كي تمسك بوجهه بينهما وهي تردد:

«ليتك تفعل... ليتك تفعل!».

قال السندباد للفتى الجالس أمامه أن موعد إبحار السفينة كان يقترب، وأن بياترز، وقد طلع النهار، أمرت الخادم أن يعد لهما طعام الإفطار، وأن يطلب من سائق المركبة أن يجهزها. . . وأنها افترشت أرض الحديقة فجلس أمامها بجوار حوض من الزهور وقد تفتحت، قالت باسمة:

«اعلم يا سندباد أني مررت بأيام كانت عصيبة وكادت تودي بحياتي لولا رعاية مربيتي وبكاء إبنتي التي أحسست أنه من الظلم أن تفقد الأب والأم معاً، وإذا كنت أنا قد جئت إلى هذه الدنيا ثمرة من ثمار الحب، فلتترعرع إبنتي في ظلاله الوارفة!».

«كيف عرفت الطريق إلى الفادو متعك الله بالصحة؟!».

هكذا سألها السندباد فقالت:

«وجدت نفسي في الحي الذي تقطنه مربيتي، وكان الناس، في كل مساء، يجأرون بالشكوى تحت أعمدة النور من ظلم الوالي المستبد، فرغبت في أن أشكو أنا الأخرى حالي، فشكوت وجأرت وبكيت وأبكيت!».

قالت بياترز أنها لا تعرف كيف غنت ومتى غنت بالتحديد، وإذا كانت دهشة الناس لجمال صوتها كانت عظيمة، فلقد كانت دهشتها هي أعظم. ولقد تعود أهل الحي أن يستمعوا إليها في كل ليلة، حتى إذا تخلفت ذات ليلة، صحبوا عازف الجيتار إلى حيث بيت المربية ووقفوا تحته، فإذا هي، كالمنومة، تنقاد للموسيقى وتغني أبياتاً من شعر لا تعرف، ولا زالت لا تعرف، كيف ينبت من أعماقها. . . وإذا هي، في شهور قليلة، تنطلق كالشهاب في سماء المدينة، وإذا الناس يأتون إليها من كل مكان كي يستمعوا إليها، وإذا بالعروض تنهال عليها من كل مكان، وإذا هي تصعد سلم الشهرة يوماً بعد يوم، وأغدق الناس عليها المال، وأحاط بها الرجال والشباب كل يركع تحت قدميها وقد أصبحت

نجمة لا ينطفىء لها بريق!.

«وماذا عن ريكاردو؟!».

«لقد رأيته اليوم بنفسك!».

«متى عاد؟!».

«مع الشهرة والمال!».

«وماذا عن . . . .».

ولـم يكمل السندباد سؤاله، كانت نظرة بيـاترز كفيلة بـأن تلزمه الصمت فلزمه، فهل هناك ما يمكن أن يضاف من حديث؟!.

قالت وهي تودعه عند باب قصرها الصغير:

«قد يمضي وقت طويل يا سندباد حتى نلتقي مرة أخرى!».

«وقد لا نلتقي أبداً!».

«وقد نلتقي بأسرع مما تتصور!».

قالت هذا وهي تصافحه، ومضت به المركبة وهي تلوح له من بعيد!.

هتف الفتى الجالس أمام السندباد منتفضاً بالشوق:

«وهل التقيتما مرة أخرى؟!».

قال السندباد وفي صوته رنة ساخرة عاتبة:

«إذهب يا ولدي، خذ نصيبك من الحياة، تزود بما سمعت، فإن نفعك ما قلت لك يوماً، فعد إلى هنا، ولسوف تجدني في الانتظار، لو كان في العمر بقية!».

تمت بحمد الله.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

التنفيذ الطباعي
مؤسسة دار الريحاني
للطباعة والنشر ش.م.م
ص.ب : ١٣/٥٣٧٨ ، بيروت ، لبنان



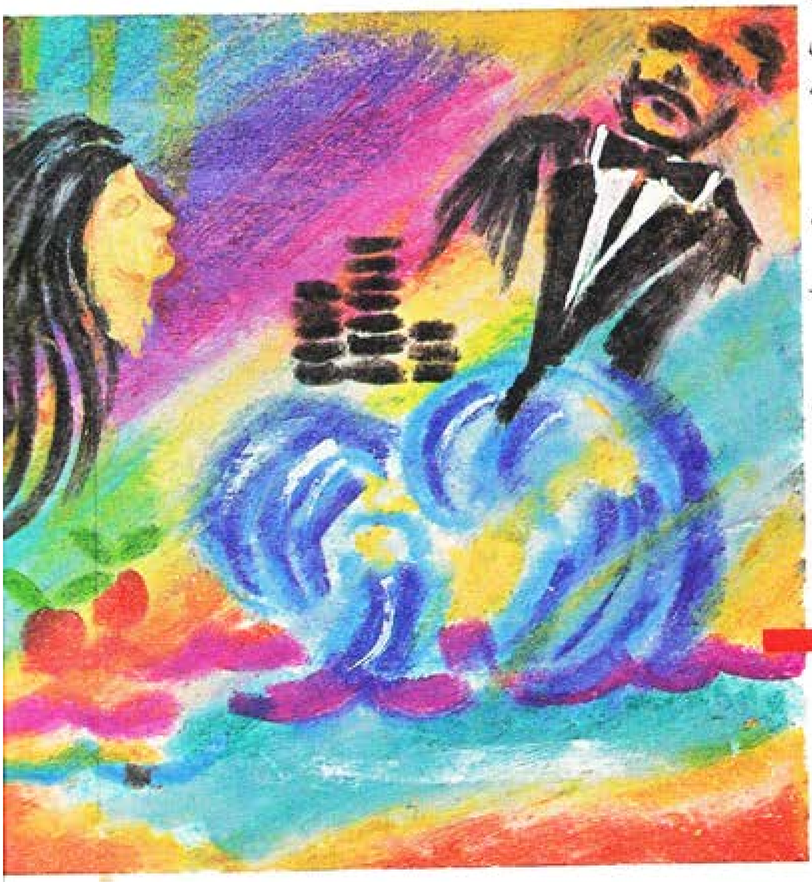
هذا الكتاب

كلنا سمعنا أو قرأنا عن مغامرات السندباد ورحلاته في بقاع الأرض ، وكلنا يعلم الأساطير التي نسجت حول شخصيته وحول صراعه ضد قوى الشر والطغيان ، لكن تبقى حقيقة واحدة علينا معرفتها ألا وهي سر هذه التنقلات السندبادية ومعرفة الغاية المنشودة من كثرة الترحال والأسفار الدائمة . . .

بين دفتي هذه القصة ، نبحر مع الأديب الكاتب ، الأستاذ صالح مرسي ، ليس في رحلة عجيبة ، وليس في مغامرة جديدة ، إنما نغوص لنسبر أغوار النفس البشرية . هذه المغامرة هي صراع مع الذات ، فالإنسان يتوق لمعرفة الحقيقة التي تتعدد وجوهها لكن جوهرها واحد ، مهما تغير الزمان والمكان ،،، فهل يتوصل سندبادنا إلى معرفة هذا السر الأزلي ، وسلاحه إيمان مطلق بالله وحده .

لطالما واجه الأخطار الجسام ، فمن سيواجه الآن ؟! . وهل هناك سندباد واحد أم أن لكل عصر سندباده ؟! .

هذا ما سوف نترك الإجابة عنه لتعرفها من خلال قراءتك لهذه القصة . . .



مكتبة مدبولي الصغير
٤٥ - البطل أحمد عبد العزيز - المهندسين
MADBOULY
EL - SAGHIR
Mohandissin